نهاية الوجود العربي

في

الأندلس

دكتور/ علي حسين الشطشاط
أستاذ التاريخ الإسلامي المساعد بكلية الآداب
جامعة قاريونس ـ بنغازي

الناشر
دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع (القاهرة)
عبده غريب

الكتــــــاب : نهاية الوجود العربي في الأندلس

المؤلـــــــف: د. علي حسين الشطشاط

رقم الإيــداع: 8009 /2001

الترقيم الدولي: ISBN

977 – 303 – 352 - X

تــاريخ النشــر : 2001

الناشـــــــر : دار قباء

للطباعة والنشر والتوزيع

الإدارة :

58 شارع الحجاز – عمارة برج آمون

الدور الأول – شقة 6

☎6362562 – فاكس/ 6374038

المكتبـــة :

10 شارع كامل صدقي الفجالة (القاهرة)

☎ 5917532 / ✉ 122 (الفجالة)

المطابـــع :

مدينة العاشر من رمضان – المنطقة الصناعية (C1)

☎ 015/362727

www. alinkya.com/kebaa

e-mail: qabaa@naseej.com

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

صدق الله العظيم

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّد المرسلين، نبيّنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد

استطاع العرب فتح بلاد الأندلس، فأضافوا بذلك صفحة جديدة من الأمجاد والعظمة المبنية على تقوى الله ورضوانه إلى أمجادهم في الشرق، وفي كل بلد وطئتها أقدامهم، واستجاب الناس لنداء الحق الذي رفعوا لواءه، ولم يكن هناك غالب ولا مغلوب، بل كانوا دعاة للخير، وبناة للحق وهداة إلى طريق المحبة والأخاء.

استقر العرب في بلد الأندلس ثمانية قرون ونيفاً فطاب لهم هواؤه، ولذّ ماؤه، وصفت أجواؤه وبشرت بالربيع الدائم أنواؤه.

ورغم الفترة الطويلة التي قضاها العرب المسلمين في بلاد الأندلس، إلاّ أن الأسبان استطاعوا إخراجهم نهائياً منها، وذلك بسقوط آخر معقل لهم، مدينة غرناطة في أيدي الجيوش القشتالية في الثاني من ربيع الأول 897هـ/ الثاني من يناير 1492م، حيث رفعت راية القديس شنت ياقب إلى جانب صليب الجهاد الفضي على برج الطليعة من أبراج قصر الحمراء. وسار أبو عبد الله محمد "الصغير" في كوكبة من رجاله وأفراد أسرته، في شعب تل البذول في صمت حزين، وألقى نظرة أخيرة على قصره، الذي كتب عليه الخروج منه، وترقرقت الدموع في عينيه، ولم تلبث أن سالت على خديه، فصاحت به أمه عائشة الحرة [أجل فلتبك كالنساء مُلكاً لم تدافع عنه كالرجال!] فأطلق الأسبان على هذا الموقع اسم: "زفرات أو تنهدات العربي الأخيرة: El suspiro del Moro".

وبينما كان المسلمون يتجرعون حرارة الهزيمة حتى الثمالة، كان النصارى يحتفلون بانتصارهم احتفالاً عظيماً مهيباً.

وهكذا انطوت بسقوط غرناطة آخر صفحة من تاريخ المسلمين في الأندلس.

وبالرغم من ذلك فقد دامت الأندلس بعد المسلمين زعيمة للفكر والمدنيَّة، واحتفظت بكامل إشعاعها، فَفَتَنَتْ سادتها الجُدُد، وأضحتْ للغرب كما كانت أثينا لروما عندما غَدَتْ مقاطعة في إمبراطوريتها. فرغم كونها مغلوبة نستطيع أن نقول بأنَّها استولت هي نفسها على قاهريها.

هذا الكتاب أصلاً جزءاً من المحاضرات التي ألقيها على طلاب السنة الثالثة بقسم التاريخ/ كلية الآداب/ جامعة قاريونس في مادة تاريخ الإسلامي في الأندلس. وهو يعالج مرحلة مهمة من مراحل التاريخ الأندلسي، تمثل الحقبة الأخيرة من الوجود الإسلامي في الأندلس، وتبدأ هذه الحقبة بسقوط الخلافة الأموية ببلاد الأندلس عام 422 هـ/ 1031م، وتنتهي بسقوط غرناطة عام 897 هـ/ 1492م.

يتكون هذا الكتاب من ثلاثة فصول ومقدمة وخاتمة. ففي الفصل الأول سأخصصه لدراسة "دول الطوائف" وسترتكز الدراسة فيه حول سبعة من هذه الدول، وسوف نرى أن هذه الدويلات كانت مفككة وقامت على انقاض الدولة الأموية العظيمة وكانت تقوم بينها المنافسات والمنازعات والحروب الأهلية من أجل السيطرة والسلطان.

وفي الفصل الثاني سيكون حديثنا عن "تاريخ مملكة غرناطة تحت حكم بنى الأحمر"، وسأبين أسباب ثبات غرناطة، وسوف نرى أنها عُمِّرت ما يزيد على قرنين ونصف، ثم سقطت في أيدي الأسبان، وطويت بذلك دولة الإسلام في الأندلس.

وأخيراً سأختم الكتاب بفصل ثالث، سأتناول فيه "أسباب إنهيار الوجود العربي في الأندلس"، ومن خلال ذلك سأذكر ثمانية أسباب، ثم يدفعنا البحث إلى الحديث

عن محنة المسلمين بعد سقوط غرناطة ومحاكم التفتيش، التي تعرضوا لها.

وفي نهاية هذا الفصل، سأتطرق إلى الحياة الفكرية في الأندلس باقتضاب شديد.

وبعد، فأرجو أن أكون قد وفقت في إعداد مادة هذا الكتاب إعداداً جيداً ... ولا أدعى إحاطة أو كمالاً فالكمال لله وحده، ولكن حسبي إني اجتهدت وسعيت ... فإن أصبت فتلك بغيتي وإن أخطأت فللّه العصمة والكمال ... وما توفيقي إلاّ بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

د. علي حسين الشطشاط

السلمانى الشرقي/ بنغازي

ربيع سنة 2000 ف

تمهيــــد

يقدم إلينا تاريخ الأندلس في مراحله الأولى، صفحات باهرات من ضروب المجد الحربي والسياسي، وآيات ساطعات من ضروب التمدن والعرفان، ولكنه يقدم إلينا في مراحله الأخيرة، صفحات مشجية مؤثرة من تقلب الحدود، وتعاقب المحن، والانحدار البطيء المؤلم، إلى معترك الهزيمة، والذلة والسقوط [1].

ولا تمثل قصة وجود العرب في الأندلس، سوى الحقيقة التاريخية الخالدة. وليس مجرى التاريخ سوى تعاقب الأجيال والأمم، وتبدل الحضارات والدول. ولكن الصراع الطويل المضطرم، الذي خاضته الأمة الإسلامية في الأندلس، قبل أن تستسلم إلى قدرها المحتوم، ويبدو فضلاً عما يحف به من ألوان البطولة الخالدة، صفحة رائعة من الاستشهاد المؤثّر، قلما يقدمها إلينا تاريخ أمة من الأمم، التي اشتهرت بالذود عن حياتها وحرياتها [2].

في الوقت الذي كانت تجري فيه تلك الأحداث التي سبق ذكرها، حيث بلغت الفوضى في المجتمع الإسلامي بالأندلس أقصاها وجاوز التفسخ والميوعة الأخلاقية مداهما كان هناك في الجانب النصراني تكتل وعزم على العمل، وقضاء في الإرادة المصممة على القيام بالحركة الإيجابية للإجهاز على هذا المجتمع الإسلامي الذي بدأ وكأنه فقد كل مميزاته وعناصر وجوده، وكان هذا التكتل من أوروبا وأسبانيا يتجسم بصورة أكثر في واجهتين من عملهما، الأولى خفية وتمثل في الدّس والوقيعة بين مختلف زعماء القبائل العربية ومختلف ملوكها، واعتمدت في نفس الوقت على استغلال دول شمال أفريقيا الإسلامية الحانقة على الدولة الأموية العربية في أسبانيا، التي أخضعتها لسلطانها بالحديد والنار، وبالأخص في عهد عبد الرحمن الناصر والمنصور بن أبي عامر، إذ أصبح المغرب إقليماً تابعاً للأندلس وإن لم

---

(1) عنان، محمد عبد الله: نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين، مطبعة مصر (والقاهرة، 1958)، ص 12.

(2) المصدر نفسه، ص 12.

يعرف أبداً الاستقرار والهدوء، وإنما كان بركاناً من الثورات والاضطرابات. أما الواجهة الثانية فقد كانت سافرة واضحة وكان تتجلى في تلك الهجمات المتواصلة على كل المواقع العربية الحسّاسة وبالأخص القوط التي كان يظن أنها ضعيفة وعاجزة عن الدفاع عن نفسها ولاسيما الحدود الشمالية، وكان من نتائج العمل الأول للتكتل الأسباني أن فتحوا في الصفوف العربية ثغرات من التفرقة الخطيرة أخذت تتسع وتتسع حتى تبلورت في العهود التي عرفت فيها أسبانيا ما سُمي بملوك الطوائف، إذ كان هؤلاء في الأغلب صنائع اليد الأجنبية، التي كانت تحركها من الخلف أو تدفعها للانفصال وتغريها بشتى الإعانات لإضعاف معنوية الدولة المركزية، وكان من نتيجة العمل الثاني أو الواجهة الثانية أن توصل الأسبان في النهاية إلى تقويض هذه الدولة العربية وتمزيق وحدتها حتى أصبحت وكأنها لم تكن سوى حلم من الأحلام المزعجة ـــ بالنسبة للأسبان ـــ تبخر مع سطوح أنوار الفجر المشرق البسام [1].

كان الأسبان يعملون متكتلين متوحدين بينما كان الجانب العربي قد بلغ من التفكك والانحلال وفي مختلف مرافقه وأجهزته ما أعان الأسبان على عملهم ذاك وحال دون احتفاظ العرب بقدرتهم الخارقة على الصمود ومواصلة الفتوحات لقد كان التفكك يسري في كل أجهزة الخلاقة الأموية بالأندلس، وكان عهد العامريين قد زاد الطين بلة إذ بسببهم بدأت شخصية الخلاقة في الانهيار، ولم يبق لها في نفوس الجماهير تلك المهابة والمكانة التي كانت تحظى بهما إلى ما قبل خمسين أو ستين سنة خلت [2].

لقد سقطت قواعد الأندلس الشهيرة في سلسلة من المعارك والمحن الطاحنة، التي تقلبت فيها الأمة الأندلسية، منذ انهيار صرح الخلافة الأموية في الأندلس، في أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، وقامت دول الطوائف الصغيرة

(1) التواتي، عبد الكريم: مأساة أنهيار الوجود العربي بالأندلس، نشر وتوزيع مكتبة الرشاد (الدار البيضاء، 1967) ص 208-209.

(2) المصدر نفسه، ص 209-210.

المفككة، على أنقاض دولة عظيمة شامخة، وكان سقوط كل قاعدة من هذه القواعد الشهيرة، التي كانت تسطع بمجتمعاتها وحضارتها الزاهرة، خلال تلك العصور الوسطى، يمثل ضربة مميتة للدولة الإسلامية في الأندلس، ويحدث أعمق صدى في جنبات الدول الإسلامية في الشرق والغرب، وينتزع من وحي النثر والنظم أروع المراثي وكانت الأمة الأندلسية الإسلامية، كلما سقطت قاعدة من قواعدها الشهيرة، في يد عدوتها القديمة المتربصة بها ـــ أسبانيا النصرانية ـــ ألفت عزاءها في قواعدها الأخرى، وهرع معظم السكان المسلمين إلى تلك القواعد الإسلامية الباقية، استبقاء لحرياتهم ودينهم وكرامتهم، حتى لم يبق من تلك القواعد الشهيرة سوى غرناطة وأعمالها، تؤلف مملكة صغيرة ولكن أبيّة ساطعة، استطاعت عبقرية بُناتها النصريين، أن تسير بها خلال العاصفة أكثر من مائتي عام [1].

وقبل سقوط الدولة الأموية ببلاد الأندلس سنة 422هـ/ 1031م كانت الإدارة بها قد ابتدأت تتوزع بين الزعامات والعصبيات القوية، وبعد سقوط الدولة المشار إليها جاءت الفرصة الملائمة للمغامرين الباحثين لأنفسهم عن مقاطعات تتسع لرغباتهم وأطماعهم، وأنفسح الأمل أمام الراغبين في العمل في مجالات مناسبة يمارسون فيها سلطتهم ونفوذهم، ولم يكن تحقيق الرئاسة واستمرارها ممكناً إلا بالعصبيات المتغلبة على الأقاليم المختلفة، لأن هذه العصبيات كانت تملك القوة الكافية للسيطرة على المناطق المنعزلة، وساعد على وضوح دور هذه العصبيات القوية وتميزها عوامل عديدة ومتنوعة [2].

هذه الدول المتخاصمة المتنابذة، التي قامت على أنقاض الدولة الأندلسية الكبرى، تعرف بدون الطوائف، ويعرف رؤساؤها بملوك الطوائف. وهم ما بين وزير سابق، وقائد من ذوي النفوذ والصحب، وحاكم لإحدى المدن، وشيخ للقضاء، وزعيم من ذوي المال والحسب. وقد ظهروا جميعاً إبان الفتنة، وبسط كل

---

(1) عنان: نهاية الأندلس، ص 13 - 12 .

(2) للإطلاع على هذهالعوامل انظر كتاب مع المسلمين في الأندلس لعلي حبيبه، دار الشروق، ط2 (جدة، بدون تاريخ) ص 229–230.

سلطانه، على ما أتيح له من المدن والأراضي، وأخذ يعمل على تدعيم ذلك السلطان وتوسيعه، وتأسيس الملك لبنية [1].

يشغل عصر الطوائف من تاريخ أسبانيا المسلمة زهاء سبعين أو ثمانين عاماً، منذ انهيار الخلافة الأندلسية، على إثر انهيار الدولة العامرية (سنة 399هـ/ 1009م) وتفكك الدولة الأندلسية الكبرى، وانقسامها إلى وحدات متعددة، تقوم في كل وحدة منها دولة أو مملكة من ممالك الطوائف، تزعم لنفسها الاستقلال والرياسة المطلقة، ولا تربطها بجاراتها أو زميلاتها، أية رابطة، إلا أن تكون المنافسة، أو الحرب الأهلية في سبيل الغنم والتوسع. وهذا البحر الخضم من المنافسات والمنازعات والحروب الأهلية الانتحارية، هو قوام عصر الطوائف. الذي أنصف بالتفكك والانحلال السياسي والاجتماعي الشامل، بالرغم مما كان يبدو في بعض نواحيه من جوانب براقة. وكان الشعب في ظل دول الطوائف، لا حساب له، وليس عليه إلاّ أن يخضع لما يفرض عليه من مختلف المغارم والفروض، التي يستخدمها الأمير لإقامة بلاطه الفخم أولاً، ثم حشد الجند الذين هم سياج ملكه وسلطانه، وأخيراً لتنفيذ مشاريعه السياسية والعسكرية، وهي لا تخرج غالباً عن مهاجمة زميله وجاره الأضعف منه، وانتزاع ما في يده، وقلما تتجه إلى القضية الكبرى، قضية الدفاع عن الأندلس ضد عدوها الخالد، الدائب لمقارعتها وتحطيمها، وهو أسبانيا النصرانية [2].

---

(1) محمد عنان: دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي. مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة، 1960) ص 14– 15 من المقدمة.

(2) المصدر نفسه، ص 3 (من المقدمة).

الفصل الأول

دول الطوائف

أصبح للمسلمين في الأندلس عشرون دولة، أو عشرون إمــارة أو مملكة، أوأية تسمية أخرى، كان يريدها الحاكمون فيها، وتميزت الجماعات بهذه الوحدات المنفصلة بأجناسها وعنصريتها فهي عربية أو بربرية أو صقلبية أومن المولدين، واتخذت كل جماعة لها مكاناً في المناطق متى كان فيها أكثرية سواء في الشرق أو الغرب أو الشمال أو الجنوب أو الوسط، وأقام الخائفون منهم في مناطق قريبة من مناطق الفرار بإفريقية الشمالية، وكأنهم كانوا على شعور غالب بأنهم في الطريق إلى الضياع أو إلى النهاية، وتأكد شعورهم بهذا الضياع بعد أن ضلوا سبيل الوحدة، وبعد انشغالهم بالصراع الطويل لتحقيق الرغبة في الحكم والسيطرة، أو لتحقيق الأمل في توسيع الممالك ولو على حساب مصيرهم كله [1].

لقد انقسمت رقعة بلاد الأندلس من الناحية الإقليمة إلى مناطق رئيسية كان منها:

أ) منطقة قرطبة، وحكمها بنوجهور (422-461هـ/1030-1068م).

ب) منطقة طليطلة، وحكمها بنوذي التون (427-487هـ/1035-1075م).

ج) منطقة اشبيلية، وحكمها بنو عباد (414-484هـ/ 1023 -1091م).

د) منطقة غرناطة، وحكمها بنو زيري (403-483هـ/1012-1090م).

هـ) منطقة بلنسية، وحكمها العامريون (412-478هـ/ 1021-1085م).

و) منطقة سرقطة، وحكمها بنو هود (410-536هـ/1019-1141م).

ز) منطقة بطليوس، وحكمها بنو الأفطس (421-488هـ/ 1030-1094م).

وبقى غير هذه المناطق الكبيرة عدد آخر من المدن والقواعد الأندلسية التي استقلت بنفسها، وكونت إمارات قائمة بذاتها داخل منطقة أو أخرى، ثم اختفى بعض هذه الإمارات بانضمامها للأقوياء، أو بخضوعها لهم، وكلها كانت تختلف

(1) على حبيبه: المصدر السابق، ص 230 - 231.

من حيث اتساع الرقعة والأهمية السياسية، والعسكرية والثقافية، وكلها كانت تنقصها العناصر اللاّزمة لتكوين الدّول المستقرة، ولم تكن واحدة منها تستطيع أن تعيش وحدها، أو أن تستقل بشؤونها لصغر رقعتها الإقليمية، ولضعف قدراتها ومواردها (1).

هذا ويصف عبد الواحد المراكشي أحوال بلاد الأندلس إبان إنتهاء الدولة الأموية، فيقول: [وأما حال سائر الأندلس بعد اختلال دعوة بني أمية، فإن أهلها تفرّقوا فِرقاً، وتغلّب في كل جهة منها متغلّب، وضبط كلُّ متغلّب منهم ما تغلب عليه، وتقسّموا ألقاب الخلافة، فمنهم من تسمىً بالمعتضد، وبعضهم تسمىً بالمأمون، وآخر تسمىً بالمستعين، والمقتدر، والمعتصم، والمعتمد، والموفق، والمتوكل، إلى غير ذلك من الألقاب، وفي ذلك يقول أبو على الحسن بن رشيق:

مِمــا يــزهدي في أرض أندلــس
سَــمَاعُ مُقــتَدِرٍ فــيها ومعتضِــدِ
ألقـابُ مملكةٍ في غـي موضـعها
كالهرِّ يحكي انتفاضاً صولة الأسد(2)]

لم يزد عهد ملوك الطوائف على ثمانين سنة 399 - 483هـ/ 1008-1090م التأم بعدها شمل البلاد تحت رعاية المرابطين: 483 - 541هـ/ 1090 - 1146م وتحت رعاية الموحدين بعدهم: 541- 633هـ/ 1146 - 1235م، واستردت بلاد الأندلس في عهد المرابطين والموحدين تفوقها العسكري القديم في شبه الجزيرة ولكنها لم تستطع أن تسترد وحدتها الإقليمية ولا تماسكها أيام دولة

---

(1) على حبيبه: المصدر السابق، ص 244.

(2) المعجــب في تلخيص أخبار المغرب ــ ضبطه وصححه وعلق على حواشيه وأنشأ مقدمته محمد سعيد العــريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة (القاهرة، 1949) ص 70. ويروى الشطر الثاني من البيت الأول بصورة أخرى هي: أسماء معتضد فيها ومعتمد. ينظر أعمال الأعلام، ص 44.

دولــة الأمويين، لأن القوة التي وحدتما كانت من خارج حدودها، وكانت تمثلها جماعات وافدة من شمالي إفريقية، وهم المرابطون أو الموحدون البربر الذين كانت تحسّ بوجودهم العناصر البربرية غير إحدى القوى الكبيرة المتنازعة مع غيرها في طول البلاد وعرضها. وأحسَّ الأندلسيون أيام حكم البربر بمأساة بلدهم، وضياع سيادتهم، ووجدوا في المرابطين ومن جاء بعدهم مجرد جماعات متخلفة لا ترقى إلى مستواهم الحضاري والثقافي، فلم يساندوهم، ولم يدعموا سلطتهم، وكأن الأمويين وحدهم هم أصحاب الحقِّ في حكم بلاد الأندلس، ثم ذهبت بذهابهم روح الوحدة والانسجام حتى النهاية[1].

أـ بنو عباد اللخميون في اشبيلية:

كانت مملكة إشبيلية أو غربي الأندلس، من حيث الرقعة الاقليمية، والزعامة السياسية، والقوة العسكرية، أهم دول الطوائف وأعظمها شأناً، فقد سطعت بين دول الطوائف زهاء نصف قرن، بفخامة بلاطها، وروعة رسومها، وكان للأدب والشعر بها دولة زاهرة، طبعت هذه الحقبة القصيرة من تاريخها، بطابعها الخالد[2].

من أشهر ملوك الطوائف بنو عباد في اشبيلية، وكان أولهم القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عبَّاد اللخمي (م: سنة 433هـ/ 1042م) الذي سيطر على هذه المدينة بعد أن خرج منها القاسم بن حمود وابنيه محمداً والحسن[3]، وهذه الأسرة من سلالة المنذر بن ماء السماء اللخمي، وقد استطاعوا السيطرة على غرب الأندلس بالإضافة إلى اشبيلة، وانتزعوا قرطبة من أيدي بني جهور أصحاب الوزارة. وأشهرهم المعتمد بن المعتضد (461 - 483هـ/ 1069ـ 1090م) الشهير بالأدب والبراعة، والموصوف بالكرم والشجاعة، الذي نكبه في

(1) علي حبيبه: المصدر السابق، ص 244 – 245.
(2) محمد عنان: دول الطوائف، ص 31.
(3) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 73.

آخر أمره أمير المسلمين "يوسف بن تاشفين"، وكان قد استفحل أمره بالأندلس، وعلت مكانته على بقية ملوك الطوائف، وخطبوا ودّه وغلوا في رضاه، ومازالت مكانته في ازدياد، وأمره في صعود، حتى أسره "ابن تاشفين"، ونكبه، حيث توفي مسجوناً باغمات سنة 488هـ/ 1095م[1].

عاش بنوعباد حياتهم وسط النعيم والرفاهية مع الإسراف والتطرف ومع المبالغة في طلب الزيادة حتى غايتها، وكانوا يرعون التقدم الحضاري في بلادهم ويهتمون به، فدعوا لها خيرة المفكرين والعلماء، وذاعت شهرتهم بالمشرق العربي كله، فجاءهم الباحثون عن العلم والدارسون له من كل مكان، وكانت بلادهم أول الممالك الأندلسية التي أمل الناس في الخير معها، ورجوا أن تلعب أهم الأدوار في حياة الأندلس كلها، وكان الرجاء فيها أن تحمي بقوتها مستقبل الإسلام والمسلمين ما استطاعت[2].

عندما تسلم مقاليد الأمور في اشبيلية أبو عمر عباد بن محمد بن اسماعيل المعتضد بالله[3] اثر وفاة أبي القاسم محمد ابن اسماعيل سنة 433هـ/ 1042م، عمل أولاً على اذكاء نار الفتنة بين امارتي قرطبة وطليطلة اللتين اصطدمتا عملياً في حرب مدمرة مدى عدة سنوات، وعمل ثانياً على عقد حلف مع كل من قرطبة وبطليموس، وقد مكنه ذلك من محاولة الإستيلاء على مقاطعات: لَبْلة، وولبة، وجزيرة شلطيش واكسونيه، كما تمكن من احتلال قرطبة نفسها، وبسط نفوذه على قسطلونة ومربيطر، وشاطبة، والمرية.. ومن يومئذ أصبح أمراء اشبيلية لذلك أعظم ملوك الطوائف شأناً وسلطاناً يخشى بأسهم أمراء المقاطعات الأخرى خاصة طليطلة[4].

(1) ارسلان، الأمير شكيب: خلاصة تاريخ الأندلس، منشورات مكتبة الحياة (بيروت، 1983)، ص 33–34
(2) علي حبيبة: مع المسلمين، ص 245 – 246.
(3) تولــى مقالــيد الحكــم بعد وفاة أبيه سنة 433هـ/ 1042م، وتوفي سنة 461هـ/ 1069م، وخلفه في السلطة المعتمد بن عباد، وكانت ولايته حوالي ثمانية وعشرين عاماً.
(4) عبد الكريم التواتي: مأساة أنهيار الوجود العربي بالأندلس، ص 239 – 240. كذلك محمد عنان: دول الطوائف، ص 40 – 48.

وقد انفق المعتضد بن عباد معظم حكمه في محاربة جيرانه من أمراء الطوائف، وكشف في محاربتهم عن قوة عزمه، وضخامة عدته، وإحكام خططه، ولكنه كشف في نفس الوقت عن قسوته وغدره، وروعة وسائله. وعلى أي حال فقد استطاع المعتضد بهذه الوسائل المثيرة أن يحقق أطماعه، وأن ينشيء مملكة اشبيلية الكبرى، أعظم ممالك الطوائف، وأن يوطد بها ملك أسرته، وأن يسبغ عليها نوعاً من الزعامة السياسية والأدبية للأندلس كلها[1].

لقد وصفه ابن الخطيب بأنه: "كان شديد الجرأة، قوي المنة، عظيم الجلادة مستهيناً بالدماء" [2].

تولى ملك إشبيلية محمد المعتمد بن عباد سنة 461 – 484هـ/ 1069 – 1091، الذي سار على نهج من سبقوه من بني عباد، فقد واصل جهوده للقضاء على طليطلة لتتم له الزعامة على جميع ملوك الطوائف بالأندلس، مستعملاً في تحقيق ذلك كل الوسائل حتى التي لاتتفق والشرف، والمبادئ الإسلامية، فقد تحالف من أجل تحقيق هذا الهدف مع عدو الإسلام والعرب التقليدي ملك ليون وقشتالة "الفونسو السادس"، وقدم له كعربون على اخلاصه أموالاً طائلة وأغدق على المرتزقة القشتاليين أيضاً من الأموال والتحف مالا يقدر، كل ذلك مقابل تعهد النصارى بسحق أعداء اشبيلية من المسلمين! ومن أغرب ما حدث أن ابن عباد بالإضافة إلى كل ذلك رضى التضحية بطليطلة او تقديمها طعمة سائغة لاعداد الإسلام تحقيقاً لوهم زائف كان يحمل في طياته أهول الفجائع للعرب أجمعين ... وإذ تخيل أن هذه الواجهة قد أمن شرورها توجه لغزو غرناطة التي كانت يومئذ تحت سلطة "عبد الله بن بلكين بن باديس"، فاقتطع من هذه الامارة، قلاع: مرتشي، وجيّان، وأبدة، ثم زحف على بطليموس. وكان تحالف المعتمد مع

(1) محمد عنان: دول الطوائف، ص 53.

(2) أعمال الأعلام، ص 156.

"الفونسو السادس" قد ساعد إلى حد كبير في التعجيل بسقوط "طليطلة" في يد النصارى[1]، والتي كان يحكمها بنو ذي النون، حيث أعلن "الفونسو السادس" الحرب على طليطلة في سنة 472هـ/ 1079م، واستمرت الحرب ستة أعوام سقطت بعدها المدينة العظيمة في يد المسيحيين سنة 478هـ/ 1085م بعد أن حكمها المسلمون ثلاثمائة واثنين وسبعين سنة[2].

وبعد سقوط طليطلة سقطت عدة قلاع في يد الفونسو السادس، فقد استولي على كل الأراضي الواقعة على ضفتي نهر التاجه، وقلاع مجريط، ومقودة، ووادي الحجارة، وقلعة رباح، وأصبح ألفونسو، يهدد في غزوه هذا باكتساح قرطبة وماردة وبطليوس، وكل الأراضي التي كانت في يد حليفه ابن عباد، وندم ابن عباد – ساعة لا ينفع الندم – على فعلته الشنعاء تلك وأخذ يتخبط في قراراته وشؤونه، وأدرك بعد فوات الأوان أي منحدر خطير انزلق إليه بالتحالف مع أعداء دينه وأعداء وجوده وبدأ وكأنه نسى أنه سيظل في نظر النصارى أجنبياً دخيلاً مهما أظهر من ممالاة لهم ضد اخوانه في الجنس واللغة والدين والمصير[3].

بعد أن رأى المسلمين بالاندلس تزايد خطر حكام قشتالة من المسيحيين ظهرت بينهم فكرة استدعاء المرابطين حكام افريقية، وكان حماس الشعب الأندلسي لهذا الاستدعاء عظيماً، لأنه كان يدري حجم الخطر المحيط بكل شيء حوله، كما كان يدرك عجز حكامه عن دفع هذا الخطر كما ادرك ذلك المعتمد بن عباد، فرأى أن يستنجد بالمرابطين، وأيده في ذلك بقية أمراء[4] الأندلس. وتطورت هذه الفكرة إلى خطة عملية أيدها سائر ملوك الطوائف وكافة أفراد الشعب الأندلسي[5].

---

(1) عبد الكريم التواتي: مأساة، ص 242 – 243.

(2) على حبيبة: مع المسلمين، ص 249.

(3) عبد الكريم التواتي: المصدر السابق، ص 243.

(4) عارض والي مالقة في فكرة استدعاء المرابطين.

(5) على حبيبه: مع المسلمين، ص 250، 251. كذلك محمد عنان: دول الطوائف، ص 74.

قرر المعتمد أن ينفذ فكرته في الاستنصار بإخوته في عدوة المغرب، وهم يومئذ المرابطون، وعاهلهم يوسف بن تاشفين، وذلك أثر سقوط طليطلة في يد النصارى، فعقد في قرطبة جمع غفير من الزعماء والفقهاء والعلماء، وتشاوروا في الأمر، فأستقر رأيهم على وجوب الاستنصار بالمرابطين؛ وقدم عندئذ ابن عباد إلى قرطبة وأقرَّ ما أرتأته "الجماعة". وانضم إليه في ذلك عدد من زملائه رؤساء الطوائف ولاسيما أميري بطليوس وغرناطة. واتفق الرأي على أن ترسل إلى عاهل المرابطين سفارة مشتركة من قضاة قرطبة وبطليوس وغرناطة. واتفق الرأي على أن ترسل إلى عاهل المرابطين سفارة مشتركة من قضاة قرطبة وبطليوس وغرناطة. وبالفعل وصلت السفارة الأندلسية إلى المغرب، ولقيت زعيم المرابطين بسبتة، فشرح له السفراء ما يلقاه أهل الأندلس من الإرهاق والذلة على يدّ النصارى، وما يهددهم به ملك قشتالة من أخذ بلادهم، وإبادتهم، وأنهم يعتمدون على نصرته وحسن بلائه، في دفع هذا الخطر عن الأندلس الإسلامية، وفي رواية أخرى أن المعتمد بن عباد عبر البحر بنفسه في جماعة من الزعماء، وسار إلى سبتة أو إلى فاس لمقابلة أمير المسلمين ابن تاشفين، وانه هو الذي استنصره بنفسه للجهاد وإنقاذ الأندلس[1].

لقد استجاب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، بعد مشاورات ومباحثات طويلة مع الزعماء والفقهاء، لدعوة أمراء الأندلس، واعتبر الصريخ، دعوة إلى المشاركة في الجهاد، والذود عن الإسلام، بيد أنه عملاً بنصح وزيره عبد الرحمن بن أسبط، وهو أندلسي من أهل المرية، خبير بشؤن الجزيرة، اشترط لإجابة الدعوة، وعبوره إلى الأندلس، أن يُسلم إليه ثغر الجزيرة الخضراء ليكون قاعدة لعبوره في الذهاب والإياب. فنزل المعتمد بن عباد عند هذه الرغبة، بالرغم من معارضة ولده الرشيد، وكان حاكم الجزيرة يومئذ هو ولده يزيد الراضي، فأمره

(1) انظر السلاوي: الإستقصا، 1/ 11. كذلك ابن خلدون: العبر، 186/6، محمد عنان: المصدر السابق، ص 76، 77.

بإخلائها والانتقال عنها، لكي تحتلها جنود زعيم المرابطين[1].

بدأ يوسف بن تاشفين يستعد للعبور إلى الأندلس، فحشد جنوده وعدده، فلما تكاملت الحشود، بعث بقوة من الفرسان تحت إمرة قائده داود بن عائشة، فعبرت البحر، واحتلت ثغر الجزيرة الخضراء وفقاً لما تعهد به المعتمد، ثم لحق ابن تاشفين بتلك الحشود في شهر ربيع الآخر سنة 479هـ/ أغسطس 1086م على رأس الجيوش المرابطية، وبعد أن نزل بالجزيرة الخضراء، شرع في تحصينها وإصلاح خططها[2].

ب ـ مملكة سرقسطة:

أ ـ عهد بني تجيب:

كانت مملكة سرقسطة أو الثغر الأعلى أعظم ممالك الطوائف وأهمها، ليس فقط بضخامة رقعتها، ولكن كذلك بموقعها الاستراتيجي المهم، بين الدول الاسبانية النصرانية، بين قطلونية من الشرق، وناقارا أو نبرّة من الشمال الغربي، وقشتالة من الجنوب والغرب، وكانت في الوقت نفسه أقدم الدول الأندلسية المستقلة، وأرسخها جذوراً في الاستقلال. ذلك أنها كانت بموقعها المنعزل النائي في شمال شرقي الجزيرة، وابتعادها بذلك عن مجموعة الدول الأندلسية الأخرى، تضطر دائماً إلى مضاعفة الجهود للذود عن حياتها، والدفاع عن استقلالها ضد مختلف الأطماع المضطربة من حولها. وقد لبثت ولاية الثغر الأعلى خلال القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي مسرحاً لمغامرات بني قسيّ زعماء الثغر المولدين[3].

وفي عهد الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (275- 300 هـ/ 888 - 912م) استطاع بني تجيب أصحاب قلعة أيوب من أعمال الثغر

(1) الحلل الموشية، ص 32، 33. كذلك ابن الخطيب: أعمال الاعلام، ص 159، محمد عنان: دول الطوائف، ص 79.

(2) انظر روض القرطاس، ص 93. كذلك محمد عنان: المصدر السابق، ص 79.

(3) محمد عنان: المصدر السابق، ص 254 – 255.

الجنوبية الاستيلاء على مدينة سرقسطة، وذلك على يد زعيمهم أبي يحيي محمد بن عبد الرحمن بن عبد العزيز التجيبـــي المعروف بالأنقر، فأقره الأمير عبد الله على حكم سرقسطة وأعمالها اكتساباً لولائه(1)، وكان بنو تجيب هؤلاء زعماء البيوتات العربية العريقة في الثغر، واستمر بنو تجيب في سرقسطة، والمنتزون من زعماء المولدين في باقي قواعد الثغر مثل تطيلة ووشقة، أحياناً على ولائهم لحكومة قرطبة، وأحياناً يخرجون على طاعتها، حتى استطاع "عبد الرحمن الثالث" (الناصر لدين الله) (300 – 350هـ/ 912 – 961م) أن يقضى على ثوراتهم، ويستترل أهل العصيان(2)، وكان أول من بايع الناصر من أولئك العصاة محمد بن عبد الرحمن التجيـــبي(3) صاحب سرقسطة، فعفا الناصر عنه وأقره في منصبه حاكماً لسرقسطة(4)، لما كان يتمتع به من مقدرة إدارية، ولما كان لبني تجيب في الشمال من العصبية والأنصار(5).

وفي أيام المنصور بن أبي عامر، شعر بنو تجيب بما يهدد سيادتهم في الثغر من اتجاه المنصور إلى القضاء على سلطان الأسر العربية، وزعامتها المحلية، فحاول زعيمهم يومئذ وهو "عبد الرحمن بن مطرف التجيبـــي"، أن يسعى إلى إزالة المنصور بالتآمر مع ولده عبد الله، ولكن المنصور استطاع أن يقبض على عبد الرحمن التجيبـــي وابنه عبد الله، ثم اعدمهما، وندب لحكم سرقسطة يحيي بن عبد الرحمن التجيـــبي، وذلك في سنة 379هـ/ 989م، وقد استمر يحيي التجيبـــي في حكم سرقسطة وأعمالها حتى وفاته في سنة 408هـ/ 1016م، فخلفه في الحكم ولده المنذر بن يحيي، الذي يعتبر أول أمير للثغر في عهد الطوائف، وقد تسمى بالحاجب ذي الرياستين، وتلقب من الألقاب السلطانية

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، 2/ 122 – 123.

(2) المقّري: نفح الطيب، 1/ 353.

(3) عند محمد عنان (دول الطوائف، ص 255) محمد بن هشام التجيبي.

(4) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المسلمين، ص 280.

(5) محمد عنان: المصدر السابق، ص 255.

بالمنصور، واستمر في حكم سرقسطة إلى أن توفي سنة 414هـ/ 1023م، فخلفه ولده يحيي، الذي تلقب بالمظفر، وعند وفاته 420هـ/ 1029م خلفه في الملك ولده المنذر، الذي تلقب بالحاجب معز الدولة، وقد استمر في الحكم مدة عشر سنوات، حيث قتل في غرة ذي الحجة سنة 430هـ/ أغسطس 1039م، وبموته ذهب ملك بنى تجيب على يده[1].

وبعد وفاة المنذر عمَّ الهرج والفوضى سرقسطة، وإنتشرت الفتنة بين الناس. وفي تلك الأثناء ظهر في الميدان رجل كانت تدخرة الأقدار ليقمع الفتنة، وينتزع مقاليد الحكم، ذلك الرجل هو أبو أيوب سليمان بن محمد ابن هود الجذامي، الذي ينتمي إلى بيت عربي عريق، وقد استطاع الاستيلاء على سرقسطة في غرة المحرم سنة 431هـ/ 23 سبتمبر 1039م. وبذلك انتهى حكم التجيبيين للثغر الأعلى، بعد أن لبث زهاء قرن ونصف، وبدأت في سرقسطة والثغر الأعلى رياسة أسرة جديدة هي أسرة بني هود، التي يخصها ابن الأبار دون غيرها من أسر الطوائف، بغلبة الشجاعة والشهامة عليها[2].

2ـ عهد بني هود:

حكم سليمان بن محمد بن هود الثغر الأعلى ماعدا طرطرشة، التي كانت بيد بعض الفتيان العامريين، واتخذ من الالقاب السلطانية لقب المستعين بالله[3]، وظهر منذ البداية بقوة عزمه وشدة بأسه، فأشتهر أمره، وتوطد ملكه بسرعة، واستمر في حكم مملكته الجديدة ثمانية أعوام، حيث توفي في سنة 438هـ 1046 م، فخلفه في حكم سرقسطة ولده أحمد بن سليمان المقتدر الذي استمر في الحكم

(1) محمد عنان: المصدر السابق، 256– 259.

(2) انظـر الحلـة السيراء، ص 224. كذلك ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 170، ابن عذاري: البيان المغرب، 3/ 178 – 181، محمد عنان: المصدر السابق، ص 259، 260.

(3) هـناك بعض المراجع تذكر أن سليمان بن هود هذا تلقّب بالمؤتمن وابنه بالمستعين – انظر عبد الواحد المراكشي: المعجب، 70 – 71.

إلى سنة 474هـ/1081م والذي غزا في عهده النورمانيين مدينة "بربشتر: BERBASTRO" وفتكوا بأهلها فتكاً ذريعاً، وذلك في أوائل سنة 456هـ/ ربيع سنة 1064م[1]. واستولوا عليها، ولكن استطاع المسلمون بقيادة المقتدر استردادها من النومانيين بعد تسعة أشهر، وعلى أثر ذلك النصر اتخذ ابن هود لقب المقتدر بالله[2].

كان المقتدر بن هود من أعظم ملوك الطوائف، فكان فضلاً عن مقدرته السياسية والعسكرية يتمتع بكثير من الخلال البديعة، حيث كان يحيط نفسه بجو من المهابة والروعة، وكان بلاطه من أعظم قصور الطوائف وأفخمها، وكان يحيط نفسه بعدد من أشهر العلماء والكتاب في عصره، وكان المقتدر نفسه من علماء عصره، حيث كان شغوفاً بدراسة الفلسفة والرياضيات، كما كان أديباً ينظم الشعر[3].

توفي أحمد بن سليمان بن هود المقتدر بالله في سنة 474هـ/ 1081م، بعد أن حكم مملكته سرقسطة خمسة وثلاثين عاماً، وكان قبيل وفاته قد ارتكب نفس الخطأ الذي ارتكبه أبوه، وهو تقسيم مملكته بين ولديه، فخص ولده الأكبر يوسف المؤتمن بسرقسطة وأعمالها، وخص ولده الأصغر المنذر بلاردة ومنتشون وطرطوشة ودانية[4].

ولم يدم حكم المؤتمن أكثر من أربعة أعوام، إذ توفي في سنة 478هـ/ 1085م، فخلفه في حكم سرقسطة وأعمالها ولده أحمد، الذي تلقب بالمستعين (الأصغر)

---

(1) انظـر الحلل الموشية، ص 45. كذلك الروض المعطار، ص 40، محمد عنان: المصدر السابق، ص 264، 265.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب، 3/ 227، 228.

(3) راجـع عـن شعره: المغرب في حلى المغرب، 2/ 437. كذلك محمد عنان: المصدر السابق، ص 272، 273.

(4) محمد عنان: المصدر السابق، ص 272.

وبقي الجزء الآخر من المملكة بيد عمه المنذر[1].

والمستعين هذا هو الذي هزمه النصارى في معركة وشقة، وهي ثاني مدينة في مملكة سرقسطة، حيث قتل فيها من المسلمين حوالي عشرة آلاف [2]، وقد حدث ذلك في 18 نوفمبر سنة 1096م (أواخر 489هـ)، حيث سقطت وشقة بيد "بيدور الأول ابن سانشو"، فحول مسجدها الجامع إلى كنيسة، واتخذها عاصمة لمملكته أراجون[3]. وبعد وفاة بيدور الأول خلفه في الملك أخوه "ألفونسو المحارب" (ابن رذمير)، الذي زحف بقواته على مدينة تطيلة، التي تعد أهم قاعدة بعد وشقة في مملكة سرقسطة، فخف المستعين لانجازها، ووقعت بين الفريقين معركة حاسمة عند بلدة تدعى بلتيرة (فالتيرا)، فهزُم المسلمون، وقُتل المستعين، وذلك في رجب سنة 503هـ/ يناير 1110م[4].

تولى حكم سرقسطة بعد وفاة المستعين ابنه عبد الملك، الذي تلقب بعماد الدولة، حيث بايعه أهل سرقسطة على شرط أن يترك محالفة النصارى، وأن يخرجهم من جيشه، وتعهد لهم عبد الملك بتحقيق رغبتهم، ولكن لم ينفذ وعده، لهذا كتبوا إلى أمير المسلمين على بن تاشفين، وهو في مراكش، يناشدونه خلع بني هود، وتسلم سرقسطة، فاستفتى عليّ فقهاءه، فأفتوا بوجوب تحقيق هذه الرغبة، وبعث إلى قائده محمد بن الحاج والي بلنسية، أن يسير إلى سرقسطة.ولما علم عماد الدولة بذلك، أرسل إلى أمير المسلمين ابن تاشفين خطاباً مؤثراً يستصرخه فيه، ويذكره بما كان بين والديهما من أواصر المودة، وأنه من الخير أن يترك سرقسطة على حالها حاجزاً بينه وبين النصارى، فرّق ابن تاشفين لملتمسه، وكتب إلى قائده أن يكف عنه[5].

---

(1) انظر عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 70 – 71. كذلك محمد عنان: المصدر السابق، ص 276.

(2) شكيب أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، ص 36.

(3) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 173. كذلك الملل الموشية، ص 53 – 55 ابن خلدون: العبر، 4/ 163.

(4) شكيب أرسلان: المصدر السابق، ص 36. كذلك محمد عنان: المصدر السابق، ص 280، 281.

(5) انظر الحلل الموشية، ص 72. كذلك عنان: المصدر السابق، ص 281.

ولكن الأمر كان قد قضي عندئذ؛ ذلك أن عماد الدولة لما شعر بمقدم المرابطين، غادر سرقسطة في أهله وأمواله إلى حصن روطة المنيع، واستقربه ينتظر الحوادث(1). وفي روض القرطاس ذكر أن محمد بن الحاج سار من بلنسية إلى سرقسطة، ودخلها في سنة 502هـ، وأخرج منها بني هود وملكها(2).

وهكذا انتهى حكم بني هود في سرقسطة، بعد أن دانت لحكمهم أكثر من سبعين عاماً. وقد عاشت ولاية سرقسطة أو الثغر الأعلى، في الواقع، كوحدة سياسية وعسكرية مستقلة عن الحكومة المركزية أكثر من قرنين، إذا احتسبنا بني تجيب هنا: وقد كانت سرقسطة آخر دولة من دول الطوائف تسقط في أيدي المرابطين. وتاريخها في الأعوام القليلة القادمة حتى سقوطها في يد ألفونسو الأول ملك أراجون في سنة 512هـ/ 1118م يرتبط بتاريخ المرابطين(3).

جـ- مملكة بني ذي النون(*) في طليطلة.

كانت طليطلة وأعمالها منذ قيام الدولة الإسلامية بالأندلس تعرف بالثغر الأوسط، لمتاخمة حدودها للمالك الإسبانية النصرانية، واعتبارها بذلك حاجز الدولة الإسلامية وجناحها الشمالي الأوسط، ضد عدوان النصارى(5).

ولم يتغير هذا الوضع بقيام دولة بني ذي النون، على أثر انهيار الخلافة، وتمزق الأندلس، في تلك المنطقة، ومن ثم كانت أهمية مملكة طليطلة. وكانت هذه المملكة تشمل رقعة كبيرة في قلب الأندلس، تمتد شرقي مملكة بطليوس، من قورية وترجاله نحو الشمال الشرقي، حتى قلعة أيوب وشنمترية الشرق، جنوب غرب مملكة بني هود في الثغر الأعلى، وتمتد شمالاً بشرق فيما وراء نهر التاجة متاخمة لقشتالة القديمة،

(1) – Dozy, Histoire, Vol, III, P, 154.

(2) روض القرطاس، ص 104. كذلك عنان: المصدر السابق، ص 281، 282.

(3) محمد عنان: المصدر السابق، ص 282.

(*) ينتمي بنو ذي النون إلى أصول بربرية، من قبائل هوارة. وكان محمد جدهم الأعلى ذو النون بن سليمان حاكماً لحصن إقليش، منذ أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم – محمد عنان: دول الطوائف، ص 94.

(5) محمد عنان: المصدر السابق، ص 93 – 94.

وجنوباً بغرب حتى حدود مملكة قرطبة، عند مدينتي المعدن والمدور، وتتوسطها عاصمتها طليطلة. ومن أعمالها مدينة سالم ووادي الحجارة وقونقة ووبذة وإقليش ومورة وطلبيرة وترجالة وغيرها[1].

تولى اسماعيل بن عبد الرحمن بن اسماعيل بن ذي النون حكم طليطلة وأعمالها في سنة 427هـ/ 1036م، وتلقب بالظافر، وامتدت رياسته شرقاً حتى كونكه وجنجالة. و لم يطل أمد اسماعيل في الملك أكثر من بضعة أعوام إذ توفي في سنة 435 هـ/ 1043م[2]، فخلفه ولده أبو الحسن يحيي بن اسماعيل، وتلقب بالمأمون[3]. وفي عهده اتسعت حدود مملكة طليطلة، وترامت شرقاً حتى بلنسية، وأضحت من أعظم دول الطوائف رقعة وموارد، وساد بها الأمن والرخاء[4].

هذا وقد بلغت هذه الدولة غاية كبرى من الاستفحال والترف، وجاهد اصحابها جهاداً كبيراً، وانتصروا على المعتمد بن عباد في قرطبة وقتلوا ولده أبا عمرو سراج الدولة، ونزعوا بلنسية من يد عبد الملك بن عبد العزيز ابن أبي عامر إلى أن أدرك دولتهم الضعف في عهد يحيي القادر بن ذي النون، حيث استطاع الفونسو السادس اخراجهم من طليطلة مقر ملكتهم، وذلك في صفر سنة 478هـ/ مايو 1085[5].

وكانت طليطلة من أول المدن الأندلسية التي استردها الافرنج، وفي ذلك يقول عبد الله بن فرج اليحصبي:

يـا أهـل أندلـس حـثُّوا مطـيَّكموا

فمـا المقـام بهـا إلا مـن الغلـط

(1) محمد عنان: المصدر السابق، ص 94.

(2) المصدر نفسه ص 96.

(3) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 72.

(4) محمد عنان: المصدر السابق، ص 96.

(5) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 72 – 73. كذلك شكيب أرسلان: المصدر السابق، ص 34.

الثوب ينسل من أطرافه وأرى
ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عدوّ لا يفارقنا
كيف الحياة مع الحيات في سفط(1)

وقال بعضهم يندب طليطلة:

خذوا ثار الديانة وانصروها
فقد صامتْ على القتلى النسورُ
ولا تهنوا وسلوا كل عضبٍ
تهاب، مضارباً عنهُ النحورُ
وموتوا كلكم فالموتُ أولى
بكمْ من أن تجاروا أو تجوروا
أصبراً بعد سبْيٍ وامتحان
يلام عليهما القلبُ الصبور؟
فأمّ الصبر مذكارٌ ولودٌ
وأمُّ الصقر مقلاةٌ نزورُ(2).

وهكذا سقطت الحاضرة الأندلسية الكبرى، وخرجت من قبضة الإسلام إلى الأبد، وارتدت إلى النصرانية حظيرتها القديمة، بعد أن حكمها الإسلام ثلاثمائة وسبعين عاماً. ومن ذلك الحين تغدو طليطلة حاضرة لمملكة قشتالة، ويغدو قصرها مترلاً للبلاط القشتالي، بعد أن كان مترلاً للولاة المسلمين. وقد كانت بمنعتها المأثورة، وموقعها الدفاعي الفذ، في منحى نهر التاجة، حصن الأندلس الشمالي،

(1) انظر المعجب، ص 73، هامش رقم (2).
(2) شكيب أرسلان: المصدر السابق، ص 135.

وسدها المنيع الذي يرد عنها عادية النصرانية، فجاء سقوطها ضربة شديدة لمنعة الإسلام وسلامتها. وانقلب ميزان القوى القديم، فبدأت قوى الإسلام تفقد تفوقها في شبه الجزيرة، بعد أن استطاعت أن تحافظ عليه زهاء أربعة قرون، وأضحى تفوق القوى النصرانية أمراً لاشك فيه. ومن ذلك الحين تدخل سياسة الاسترداد الاسبانية "لا ريكونكستا LA RECONQUISTA" في طور جديد قوي، تتقاطر الجيوش القشتالية لأول مرة، منذ الفتح الإسلامي، عبر نهر التاجة، إلى أراضي الأندلس، تحمل إليها أعلام الدمار والموت وتقتطع أشلاءها تباعاً، في سلسلة لا تنقطع من الغزوات والحروب[1].

د ـ العامريون في بلنسية:

كانت بلنسية أو مدينة التراب كما تعرف عند العرب، والواقعة على مقربة من الشاطيء الغربي الجنوبي للبحر المتوسط، وفي شرق بلاد الأندلس، كانت تحت سيطرة العامرين برئاسة "أبي الحسن عبد العزيز المغافري" حفيد الحاجب المنصور، وقد كانت بداية وجودهم هناك أن علياً بن حُمود الادريسي ــ وبعد ما هزم الفتى "خيران العامري" سنة 412هـ/ 1018م - أقطع الفتى "زهير العامري" ولاية دانية الواقعة جنوب بلنسية، وعندما نشبت الثورات الداخلية في الأندلس أثر سقوط الأمويين وتضعضع أمر الادارسة بسط زهير سلطانه على جزائر شرق الأندلس، ومرسية، والمرية، وكل المدن الواقعة في هذه المنطقة، ثم استقل بعد ذلك بدانية "مجاهد العامري الملقب بالموفق"، وقد أورثها لابنه "اقبال الدولة علي بن مجاهد" سنة 436هـ/ 1054م، وولى مجاهد أيضاً على ميورقة ابن أخية "أبا الجيش عبد الله"، أما الجزائر الشرقية الباقية، فقد ولي عليها " أحمد بن رشيق"، واستقل بمرسية "أبو بكر أحمد بن طاهر" وتولى شؤون بلنسيه "أبو الحسن عبد العزيز" حفيد المنصور في بداية سنة 413هـ/ 1022م. ولم تحل سنة 432هـ/ 1040م حتى

---

(1) محمد عنان: المصدر السابق، ص 114.

كان حكمه يمتد من المرية حتى مصب نهر إيبرو[1].

وبعد أن توفي عبد العزيز بن ابي عامر الملقب بالمؤتمن شهر ذي الحجة سنة 452هـ/ يناير 1061م، تولى ابنه عبد الملك الملقب بالمظفر، وقد استمر في الحكم إلى أن استولى على بلنسيه المأمون بن ذي النون سنة 457هـ/ 1064م[2]، وقد تم ذلك بمعونة فرديناند الأول حليف المأمون، وانتهى أمر أميرها يومئذ إلى اعتقاله وسجنه في قرية "شنت برية" أو "قلعة قونقة" أو "قلعة اقُليش" على أن هناك رواية أخرى تقول أن عبد الملك هذا قد أُقطع مدينة "شلبة" الواقعة شمال غربي بلنسية. وذلك بسبب تدخل زوجته[3] ابنة المأمون[4]. وكان ذلك في شهر ذي ا لحجة سنة 457هـ/ نوفمبر 1065م.

هذا وقد عادت بلنسية إلى الظهور والاستقلال المحدود، وذلك بعد أن تمكن ابن عباد من الانتقام من الطليطليين لاغارتهم على قرطبة وقتلهم ولده سراج الدولة، أثناء اشتغاله هو بحروب الادراسة، وهكذا لما تمكن ابن عباد من اعدائه، ــ وكان ذلك في عهد القادر بن ذي النون ــ أعاد لبلنسية وضعيتها الشرعية وأعاد أميرها إليها، ومن يومئذ أصبحت بلنسية في أغلب الأحيان تابعة لاشبيليا، وإن كانت وضعيتها والظروف التي كانت تجتازها بلاد الأندلس أرغمتها على الدوام أن تتقلب بين التبعية لبني ذي النون وتبعية اشبيليا، وبقيت على هذه الحال إلى عهد دخول المرابطين إلى الأندلس[5]. (ربيع الآخر سنة 479هـ/ أغسطس 1086م).

---

(1) عبد الكريم التواتي: مأساة، ص 265 – 266.

(2) انظر ابن عذاري: البيان المغرب، 3/ 303. كذلك عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 72.

(3) زوّج المأمون بن ذي النون ابنته من عبد الملك المظفر، ويبدو الهدف من هذه المصاهرة هو أن طليطلة أرادت فتح ثغرة في صفوف حلفاء اشبيليا.

(4) عبد الكريم التواتي: المصدر السابق، ص 267.

(5) ابن عذاري: المصدر السابق، 3/ 266، 267. كذلك عبد الكريم التواتي: المصدر السابق، ص 267 – 268.

هـ – بنو جهور في قرطبة:

كانت قرطبة إلى ما قبل استيلاء المعتمد بن عباد عليها تحت نفوذ بني جهور، فإنه لما اضطربت الأحوال في قرطبة اثر المجازر الدموية التي قام بها السكان ضد البربر، وقد رأى القرطبيون أن يغلقوا الأبواب في وجه كل الانتهاريين من كل الطوائف المتناحرة على الحكم: الأمويين، وبني جهور، والبربر، والصقالبة، ورأوا أن الوقت قد حان لتدبير شؤونهم بأنفسهم، فكان أن تقدم للقيام بهذه المهمة الوزير أبو الحزم جهور[1] بن محمد جهور بن عبيد الله[2] بن أحمد بن محمد الذي كان من أكابر الدولة ووجهائها، وكانت له الشخصية العلمية والإدارية التي كانت تؤهله للاضطلاع بهذا الأمر، وكان قبل اتخاذ هذه الخطوة وزيراً وصاحباً لأخر خلفاء بني أمية هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر، الذي خانته حاشيته ووزرائه وعلى رأس أبو الحزم جهور، حيث حاول الأخير استخلاص قرطبة لنفسه[3].

كان أبو الحزم جهور بن محمد يتمتع بمكانة بارزة في الزعامة الشعبية، حتى غدا في النهاية الأمر "شيخ الجماعة" وزعيم المدينة الحقيقي، وكان كثيراً ما يؤثر برأيه في تطور الشئون والأحوال، في تلك الأعوام الأخيرة التي كانت تحتضر فيها خلافة قرطبة، وتسير سراعاً إلى نهايتها المحتومة، وألفى جهور نفسه، بعد أن أجمع الشعب على اختياره رئيساً لحكومة قرطبة الجديدة. وكانت هذه الحكومة التي قامت على أنقاض الخلافة الأموية، تبسط سلطانها على رقعة متوسطة من الأندلس، تمتد شمالاً حتى جبل الشارات (سيرا مورينا) وشرقاً حتى منابع نهر الوادي الكبير، وغربا حتى قرب إستحبة، وجنوباً حتى حدود ولاية غرناطة، وتشمل من المدن عدا قرطبة، جيّان وأبّدة وبيَّاسة والمدور وأرجونة وأندوجر[4].

---

(1) انظر ترجمته لدى ابن عذاري: البيان المغرب، 3/ 185. كذلك ابن سعيد المغربي: المُغْرب، 1/ 56.

(2) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 57.

(3) عبد الكريم التواتي: المصدر السابق، ص 233 – 234.

(4) محمد عنان: دول الطوائف ص 21.

لقد عمد ابن جهور إلى تكوين شبه حكومة دستورية ضمت أكابر البلاد وأشرافها الذين كونوا منها مجلساً أعلى للأمة يختص بالنظر في شؤون الدولة العليا، ثم قام بإصلاحات جذرية كالغاء بعض الضرائب وتبسيط الروتين الإداري فيما يخص العدلية، ووضع للدولة ميزانية محدودة معروفة يعلن عنها في بيانات رسمية كل سنة، فاستطاع بذلك وبما امتاز به من رجاحة عقل وسعة ادراك وغزير علم أن يكسب شعبية كبيرة، وقد حاول توسيع سلطانه أملاً أن يسيطر على كرسي الخلافة الأموية ويفرض سيادته على معظم بلاد الأندلس. وفي أثناء ذلك توفي ابن جهور في المحرم سنة 435هـ/ 1044م[1].

وبعد وفاته تولى أمر قرطبة ابنه أبو الوليد محمد بن جهور الذي استمر على سُنَّة أبيه في الحكم إلى أن مات في سنة 443هـ/ 1051م[2].

لم يكن أبو الوليد محمد بالشخصية القوية التي يتطلبها الوقت رغم علمه وعقله وعدله، إذ سرعان ما وجد نفسه مضطراً لطلب التعاون مع أعداء أبيه، فحينما رأى انهماك طليطلة في حرب ابادية مع فرديناند الأول ملك قشتالة وليون تلك الحرب التي أرغم فيها ابن ذي النون على قبول أداء الجزية لفرديناند والخضوع لقشتالة أن يتقدم إلى سليمان المستعين بالله أمير سرقسطة بدعوة للإعتراف بسيادة قرطبة، وبالطبع رفضت سرقسطة هذا العرض الذي اعتبرته تطاولاً سيما وقد رأت سرقسطة أن نفوذها أخذ ينمو باعتراف وشقة وطرطوشة بتبعيتها لها[3].

وما كادت تشب الحروب من جديد بين قرطبة وطليطلة ويستنجد ابن جهور بحلفائه حتى يتقاعس المعتمد بن عباد عن القيام بواجبه كاملاً إذ لم يرسل

(1) انظر ابن عذاري: البيان المغرب، 3/ 186. كذلك عبد الواحد المراكشي: المعجب 59 – 60، عبد الكريم التواتي: المصدر السابق، 234 – 235.

(2) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص 60. كذلك ابن سعيد المغربي: المُغْرب، 1/ 56، 57.

(3) عبد الكريم التواتي: المصدر السابق، ص 235.

سوى قوة رمزية تتألف من خمسمائة فارس، وأوعز إليها أن تكون على أهبة الاستعداد للقيام بالدور الحاسم ألا وهو الاستيلاء على قرطبة غدراً، لذلك بدل أن يتوجه بنفسه آثر أن يترل هو ضرباته بأمراء المقاطعات الصغيرة في "لبلة" و"ولبة" و"شلطيش" و"أكسونية" ويقضي على استقلالها باخضاعها نهائياً لسلطته، ثم في الوقت الذي كان فيه القرطبيون منهمكين في مطاردة الأعداء المغيرين، وكان ابن جهور محمد مريض طريح الفراش، وابنه عبد الملك خارج أسوار المدينة، تسلل جيش بني عباد إلى قرطبة واحتل أهم النقط الاستراتيجية والحصينة في المدينة وأعلن سيادته عليها، وفوجئ القرطبيون بهذه الخيانة السافلة والغدر الشنيع، ولات ساعة مندم، أما الأمير محمد بن جهور فقد قضى غماً وحسرة بعد أيام قلائل من هذه الخيانة، وأما ابنه عبد الملك الذي هاله هذا المصير المحزن وهاله أن يطالبه حلفاءه بتسليم نفسه أسيراً لهم فقد فضل أن يخوض ضدهم معركة الحياة أو الموت فقاوم حتى أثخن جراحاً وأُخذ أسيراً وسجن في شَلْطيش حتى توفي سنة 462هـ/ 1070 م، وهكذا انطوت صفحة إمارة قرطبة بزعامة ابن جهور ولم يزد عمرها من بدايتها إلى نهايتها على ثلاثين[1] سنة تقريباً[2] وقد ندب المعتمد بن عباد ولده الفتى عباداً الملقب بالظافر وسراج الدولة لحكم قرطبة التي يتصل تاريخها من ذلك الحين بتاريخ مملكة اشبيلية[3].

و- بنو الأفطس في بَطَلْيوس (421–487 هـ):

كانت بطليموس التي تتكون من الركن الجنوبي الغربي في شبة الجزيرة الإيبرية أي ما بين المحيط الأطلسي ونهر الوادي الكبير في هذه الحقبة من تاريخ الوجود الإسلامي العربي تحت نفوذ آل بني الأفطس التجيبيين، وقد كانوا توصلوا

(1) ذكـــر ابـــن عذاري أن مدة دولة أبي الوليد بن جهور بقرطبة ست وعشرين سنة وستة أشهر ونصفاً – البيان المغرب، 3/ 259.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب، 3/ 259. كذلك عبد الكريم التواتي: مأساة الوجود العربي ص236 – 237.

(3) محمد عنان: المصد ر السابق، ص 29.

إلى السيطرة على هذه المنطقة عن طريق الفتى "سابور الفارسي[1]" الملقب فيما بعد بالمنصور، ذلك أن هذا الفتى، الذي كان مولى للخليفة الأموي الحكم المستنصر بالله، قد عينه هشام المؤيد والياً على هذه المناطق، وكانت تشتمل على عدة مدن منها: ماردة، وقورية، وأُشبونة، وشنترين، وشلب، وباجة، وبطليوس[2]. واتفق أن كان لسابور فتى من مكناسة كان صديقه وأمين سره، وموضع ثقته يدعى عبد الله بن محمد بن مسلمه بن الأفطس التحبيي، فعينه لذلك حاكماً لماردة الواقعة شرقي بطليموس على نهر وادي يانه، وبعد وفاة الفتى سابور نادى الفتى المكناسي بنفسه أميراً مستقلاً على المناطق الغربية هذه، والتي كانت تحت يد الفتى سابور، واتخذ مدينة بطليوس عاصمة له، ونادى بابنه أبي بكر محمد ولياً لعهده من بعده[3]. والذي تلقب بالمظفر، وقد توفى عبد الله بن الأفطر سنة 437هـ/ 1045م [4].

كان محمد المظفر أحرص الناس على جمع علوم الأدب خاصة فى النحو والشعر ونوادر الأخبار وعيون التاريخ وكان أديب عصره غير مدافع ولا منازع. وله كتابه الشهير المعروف "بالمظفري" يتكون من نحو عشرة [5] أجزاء ضخمة. وهو موسوعة أدبية وتاريخية عظيمة تحتوي على كثير من الأخبار والسير والنبذ المختارة والطرائف المستملحة [6].

---

(1) هو أحد صبيان فائق الخادم مولى الحكم المستنصر.

(2) انظر ابن عذاري: البيان المغرب، 235/3 - 236.

(3) عبد الكريم التواتي: المصدر السابق، ص 249 - 250.

(4) محمد عنان: دول الطوائف، ص 80 –

(5) ذكر ابن بسام أن هذا المؤلف يتكون من خمسين مجلداً، بينما جعله الشقندي نحو مائة مجلد = عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص 75، حاشية المحقق رقم (1).

(6) عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص 75. كذلك عنان: المصدر السابق، ص 86.

وقد أقام المظفر ملكاً عظيماً بهذا الثغر الجوفي ضاهي فيه أملاك ابن عباد وابن ذي النون، وقد دارت بينه وبينهما حروب وغارات ومهادنات عديدة يطول ذكرها هنا (1).

كان على هذه الإمارة في بداية ظهورها أن تبذل جهوداً جبارة لتدعيم وجودها تجاه قرطبة، وتجاه النصارى الأعداء التقليديين لجميع المسلمين، وهكذا اضطرت إلى الدخول في معارك طاحنة مع "فرديناند" الأول خسرت فيها بعض المواقع التي استولى عليها العدو، مثل: سمورة وبازو ولاميجو، كما استولى في نفس الوقت على جميع الحصون التي كان المنصور بن أبي عامر قد افتتحها في أعمال قشتالة القديمة، وكان تاريخ هذه الحوادث حوالي سنة 449 هـ/ 1057م، كما اضطرت هذه الإمارة في سنة 456 هـ/ 1064م إلى استئناف صراعها مع فرديناند أيضاً، وفي هذه المرة أيضاً لم تحقق الإمارة المسملة انتصاراً ما إنما على العكس من ذلك حيث خسرت مدينة "قُلُمرية"، التي كان يحكمها عبداً من عبيد بن الأفطس يسمى "راندة"، حيث خان المسلمين واتفق سراً مع النصارى الذين استطاعوا السيطرة على المدينة، فقتلوا الرجال وسبوا الحريم والذرية (2).

ولما سقط قلمرية في يد العدو، قصد واليها السابق "راندة" إلى بطليوس، وكان قد لجأ إلى المعسكر النصراني، ثم غادره طمعاً في عفو سيده، فاستقبله ابن الأفطس بجفاء وأنّبه على شنيع عمله، ثم أمر بضرب عنقه جزاء خيانته (3).

لقد هدأ ضغط النصارى على أراضي ابن الأفطس بوفاة فرديناند ملك قشتالة بعد ذلك بنحو عامين. ووقعت بين أبنائه الثلاثة حرب استمرت بضعة

---

(1) انظر ابن عذاري: البيان المغرب، 3 /237 .

(2) ابن عذاري: البيان المغرب، 3/ 238 - 239. كذلك عبد الكريم التواتي: المصدر السابق، ص 251-250، عنان: المصدر السابق، ص 86-85 .

(3) انظر ابن عذاري: المصدر السابق، 3 / 238، 239. كذلك أعمال الأعلام، ص 184، عنان: المصدر السابق، ص 86.

أعوام شغل خلالها النصارى عن عدوانهم على أراضي المسلمين. ولما خلص عرش قشتالة وليون بعد ذلك إلى ولده ألفونسو، تحولت دفة هذا العدوان إلى مملكتي طليطلة وإشبيلية [1].

توفي المظفر بن الأفطس في سنة 461 هـ/ 1068 م، فخلفه ولده يحيي الملقب بالمنصور، فثار ضده أخوه عمر، فاضطرمت الفتنة بين الطرفين، وكادت تدمر كل شيء، لولا أن توفي يحيي المنصور فجأة سنة 464 هـ / 1072 م، فخمدت الفتنة ودخل عمر بطليوس، وتولى الحكم مكان أخيه دون منازع، وتلقب بالمتوكل على الله، وندب ابنه العباس حاكماً ليابره [2]. وقد وصفه لنا معاصره الفتح بن خاقان، بقوله: "ملك جند الكتائب والجنود، وعقد الألوية والبنود، وأمر الأيام فائتمرت، وطافت بكعبته الآمال واعتمرت "[3]. وقال عنه ابن الخطيب: "كان المتوكل ملكاً عالي القدر، مشهور الفضل، مثلاً في الجلالة والسرور، من أهل الرأي والحزم والبلاغة، وكانت مدينة بطليوس في مدته دار أدب وشعر ونحو وعلم " [4].

لقد استطاع ألفونسو السادس ملك قشتالة الاستيلاء على طليطلة عاصمة بني ذي النون في المحرم من سنة 487 هـ (1085 م). وقد شعر ألفونسو السادس على أثر إنزال هذه الضربة الفادحة بالمسلمين، إنه أصبح قادراً على تحدي دول الطوائف جميعاً، والقضاء عليها، واحدة بعد الأخرى، وكان من أثر ذلك أن أرسل إلى المتوكل يطلب إليه تسليم بعض قلاعه وحصونه، وأن يؤدي له الجزية، ويتوعده بشر العواقب إذا رفض، ولم يكن ثمة شك في خطورة هذا الوعيد، بعد أن سقطت طليطلة حصن الأندلس على نهر التاجه، وعبور النصارى لذلك النهر

---

(1) عنان: المصدر السابق، ص 86.

(2) المصدر نفسه، ص 87.

(3) قلائد العقيان، ص 36.

(4) أعمال الأعلام، ص 185.

لأول مرة؛ ومع ذلك فقد رفض المتوكل الاستجابة لذلك الوعيد، وردَّ على ملك قشتالة برسالة [1] قوية حازمة، تفيض شجاعة وإباءً ونبلاً[2].

كان عمر المتوكل، إلى جانب زميله المعتمد بن عباد، وكلاهما يومئذ هدف لأخطر عدوان مباشر من جانب ملك قشتالة، في مقدمة المؤيدين لفكرة استدعاء المرابطين، وقد كتب إلى أمير المسلمين، كما كتب المعتمد، يلتمس عونه وغوثه. والظاهر أن المتوكل، تلقى كما تلقى ابن عباد من أمير المسلمين، كتاباً يعده فيه بالجواز والإنجاد [3].

وعندما استولى المرابطون على غرناطة ذهب عمر المتوكل مع المعتمد بن عباد لتهنئة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، فاستقبلهما بجفاء، فانصرفا من لديه وقد شعر كلاهما بالخطر الداهم على مملكته. على أنه يبدو أن ابن الأفطس استطاع بعد ذلك أن يعمل على توثيق أواصر المودة مع المرابطين، وقد استمرت هذه العلائق الودية قائمة نحو ثلاثة أعوام. ثم بدأ المرابطون الإغارة على أراضي مملكة بطليوس، فشعر المتوكل بتغير المرابطين نحوه وتصميمهم على إزالته، فاتجه الاستغاثة بألفونسو السادس ملك قشتالة وتنازل لملك قشتالة مقابل حلفه ومعاونته عن ثلاثة مدن مهمة من أملاكه، هي: أشبونة، وشنترة، وشنترين، وقد كان لهذا التصرف وقع سيء، إذ انحرف أهل بطليوس عن المتوكل، وكتب أعيانهم إلى المرابطين يستدعونهم، وفي أوائل سنة 488 هـ/ 1094م، بعث حاكم اشبيلية المرابطي الأمير سير بن أبي بكر جيشاً إلى بطليوس لافتتاحها، فأخترق أراضي بطليوس بسرعة، ولم يتمكن ملك قشتالة من تقديم المساعدة لحليفه المتوكل، مما أضطر الأخير إلى الامتناع بقصبة بطليوس المنيعة الضخمة، ولكن المرابطين استطاعوا اقتحامها بعنف، وقبضوا على المتوكل وولديه الفضل والعباس، واستدلوا

---

(1) انظر تفاصيل هذه الرسالة في الحلل الموشية، ص 20 - 21.

(2) محمد عنان: المصدر السابق، ص 89.

(3) المصدر نفسه، ص 91، 92.

على أمواله المدفونة بالقصبة، بعد أن عذبوه لكشف مخابئها، واحتل المرابطون بطليوس، وأخذوا المتوكل وولديه بحجة تسييرهم إلى اشبيلية، ثم أعدموهم في الطريق [1]. وكان للمتوكل ولد ثالث هو المنصور، وكان قد بعثه ومعه معظم ذخائره إلى حصن شانجش على مقربة من حدود قشتالة، ليمتنع فيه، فلما علم بما وقع لأبيه وإخوته، سار في أهله وأمواله إلى ملك قشتالة، والتجأ إلى حمايته، وأقام بأرضه، واعتنق النصرانية وفقاً لبعض الروايات [2].

وهكذا انتهت مملكة بطليوس بعد أن عاشت في ظل بني الأفطس خمسة وسبعين عاماً، وتم للمرابطين فتح غربيّ الأندلس كله، كلما تم لهم من الناحية الأخرى فتح شرقي الأندلس [3].

ز – منطقة غرناطة وحكمها بنو زيري (403 - 483 هـ/ 1012 - 1090 م)

كانت غرناطة وقت افتتاح الأندلس، مدينة صغيرة من أعمال ولاية "إلبيرة" تقع على مقربة من مدينة إلبيرة قاعدة الولاية، من الناحية الجنوبية، افتتحها المسلمون عقب انتصارهم على القوط، بقيادة طارق بن زياد في موقعه شريش في رمضان سنة 92هـ / يوليو 711م. ولما اضطرمت الفتنة بالأندلس، ودب الخلاف بين القبائل، عقب موقعه بلاط الشهداء سنة 114 هـ/ 732م) وأشتد التنافس على الإمارة بين الشاميين من ناحية، والعرب والبربر من ناحية أخرى، رأى أمير الأندلس أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي، أن يعمل على تهدئة الفتنة بتمزيق عصبة الشاميين، ففرقهم في أنحاء الأندلس، وأنزل جند الشام بكورة إلبيرة، وجند حمص باشبيلية، وجند فلسطين بشذونة والجزيرة وجند الأردن برية، وهكذا نزل الشاميون منذ البداية بولاية إلبيرة، وغدوا بمضى الزمن كثرة فيها. واستمرت مدينة

(1) انظر المعجب، ص 42. كذلك أعمال الأعلام، ص 186.

(2) أعمال الأعلام، ص 186. كذلك محمد عنان: دول الطوائف، ص 356.

(3) محمد عنان: المصدر السابق، ص 356.

عامرة، فيما ما كان تبلغ سكانه الألوف، ومنها ما كانت يملكه ملك واحد أو ملاك قلائل [1].

كانت المدينة ذاتها نموذجاً للعمارة الإسلامية، تغص بالصروح والأبنية الضخمة، وتتخللها الميادين والطرقات الفسيحة. وكانت الضخمة، وتتخللها الميادين والطرقات الفسيحة. وكانت مدينة الحمراء أو دار الملك أروع ما فيها، تطل على أحيائها [2] "في سمت من القبلة تشرف عليها منها الشرفات البيض، والأبراج السامية والمعاقل المنيعة، والقصور الرفيعة، تغشى العيون وتبهر العقول" [3].

لبثت غرناطة في ظل الدولة الأموية، قاعدة متواضعة من قواعد الأندلس الجنوبية، وهي تحل مكان إلبيرة شيئاً فشيئاً، حتى كانت أيام الفتنة عقب انهيار الدولة الأموية في أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي فأخذت القواعد الجنوبية تغدو بعد تخريب قرطبة، ونأى القواعد والثغور الشرقية والشمالية، مركز التجاذب والتنافس بين زعماء الفتنة. ووقعت غرناطة يومئذ في نصيب البربر، واستولى عليها زعيم صنهاجة "زاوي بن زيري" واتخذها دار ملكها، وقامت في قرطبة دولة بنى حمود الإدريسية، واستمرت الحرب والفتنة مدى حين، سجالاً بين المتغلبين من فلول بني أمية وبني عامر، وفتيانهم ومواليهم، وبين زعماء البربر. ولما ظهر المرتضي [4]، وهو من عقب بنى أمية، ودعاء لنفسه بالخلافة، سار في عصبة الأمويين والموالي إلى غرناطة، لانتزاعها واتخاذها دار ملكه، فرده عنها صاحبها "زاوي الصنهاجي" في موقعه دموية سنة 409 هـ/ 1017م، واستقر زاوي في حكم غرناطة وأعمالها بضعة أعوام، ثم غادرها إلى دار قومه في افريقية (تونس)،

(1) ابن الخطيب: الإحاطة، 1/ 122، 123، 138،131 . كذلك عنان: نهاية الأندلس ص 19، ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص 13.

(2) عنان: المصدر السابق، 19 - 20.

(3) انظر ابن الخطيب: الإحاطة، 1 / 121. أو اللمحة البدرية، ص 13، 14.

(4) هو عبد الرحمن بن محمد بين عبد الله بن الناصر.

إلبيرة قاعدة لهذه الولاية ومركز قضائها في ظل الدولة الأموية، حتى أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، حينما انهارت الخلافة الأموية وتعاقب الفتن، وعاث البربر في النواحي، وخربت مدينة إلبيرة شيئاً فشيئاً، حتى غدت غرناطة قاعدة الولاية مكانها، وغلب اسم غرناطة على الولاية نفسها، ومن ذلك الحين يختفي اسم إلبيرة كقاعدة من قواعد الأندلس، ويذكر مكانها اسم غرناطة، والواقع أن إلبيرة وغرناطة تعتبران في معظم الأحيان ولا سيما في المراحل الأولى لتاريخ الأندلس اسمين لمكان واحد، وقد جرى كثير من المؤرخين والجغرافيين على المزج بينهما [1].

وغرناطة أو إغرناطة اسم قديم يرجع إلى عهد الرومان والقوط، وقد اختلفت آراء الباحثين في أصل هذه التسمية فيرى البعض أنه مشتق من الكلمة الرومانية: Granata، أي الرمانة، وأنها سميت كذلك لجمالها ولكثرة حدائق الرمان التي تحيط بها، ويرى البعض الآخر أن التسمية ترجع إلى أصل قوطي أو أنها ترجع إلى أصل بربري مشتق من اسم إحدى القبائل [2].

كانت غرناطة أيام الدولة الإسلامية، جنة من جنات الدنيا، تغص بالغياض والبساتين اليافعة، التي كانت لوفرة خصبها وروعة نضرتها، تعرف بالجنات، فيقال للمزرعة أو البستان "جنة كذا" أو جنة فلان، مثل جنة الجرف، وجنة العرض، وجنة الحفرة، ومدرج نجد، ومدرج السبيكة، وجنة ابن عمران وجنة العريف وغيرها. وقد ذكر ابن الخطيب أن هذه الجنات الغرناطية الشهيرة كانت تبلغ في عصره زهاء المائة، كما ذكر لنا منطقة غرناطة، كانت تضم زهاء ثلاثمائة قرية

---

(1) انظر ابن الخطيب: كتاب الاحاطة في أخبار غرناطة (القاهرة، 1955)، 1/ 99 - 105. كذلك محمد عنان: نهاية الأندلس، ص 17.

(2) انظر Simonet, Descripcion del Reio de Granada, 1872, P. 40 - 41.
كذلك ابن الخطيب: اللمحة البدرية (القاهرة، 1347 هـ) ص 12.

وذلك في سنة 416 هـ/ 1025 م [1]، واستخلف عليها ابن أخيه "حبُّوس بن ماكسن"، فحكمها حتى توفي في سنة 428 هـ/ 1036 م، وخلفه في ولايتها ولده "باديس" الذي تلقب بالمظفر واستولى على مالقة من يد الادراسة الحسنيون العلويون (بني حمُّود) سنة 449 هـ/ 1057 واتسع ملكه، ولبث طول حكمه الذي استطال حتى سنة 467 هـ / 1074 م، في قتال مستمر مع بني عباد أمراء أشبيلية، أعظم وأقوى ملوك الطوائف يومئذ.

كان باديس بن حبوس أعظم ملوك البربر في عصر الطوائف وأقواهم جانباً، وكانت مملكته من أكبر ممالك الطوائف رقعه؛ إذ كانت تمتد من بسطة شرقاً حتى اتجه ورندة غرباً، ومن بياسة وجيان شمالاً حتى البحر جنوباً. وباديس هذا هو الذي مصَّر مدينة غرناطة. وغدت منذ عهده من أهم قواعد الأندلس الجنوبية، وأنشأ قصبة غرناطة فوق أنقاض قلعتها القديمة، وسميت باسمها القديم "القلعة الحمراء" وهو الاسم الذي خُلد على مر العصور، وغدا فيما بعد علماً على حمراء غرناطة، وأقام داخل القصبة قصره ومسجده الذي دفن فيه وأنشأ سوراً ضخماً حول الربوة التي تقع عليها القصبة [2]. وأنشأ قصبة مالقة المنيعة، التي ما زالت آثارها باقية إلى اليوم، وأنشأ له جيشاً قوياً مرابطاً من قومه صنهاجه وغيرها، وبذل له المال الوفير، ووطد الدولة، ونظم مراتبها وعمالاتها [3].

ولما توفى باديس المظفر خلفه في حكم غرناطة وأعمالها حفيده عبد الله بُلُكيِّن بن باديس، واستمر في حكمها إلى أن عبر المرابطون البحر إلى الأندلس في سنة 483 هـ/ 1090م بقيادة "يوسف بن تاشفين"، واستولوا عندئذ على غرناطة، كما استولوا على قواعد الأندلس الأخرى، وانتهت بذلك دول الطوائف، التي قامت على انقاض الخلافة الأموية، وعاشت زهاء ستين عاماً [4].

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، 3 / 127 - 128. كذلك عنا: نهاية الأندلس، ص 23 - 24.

(2) ابن خلدون: العبر، 6 / 180. كذلك محمد عنان: دول الطوائف، ص 137.

(3) محمد عنان: المصدر السابق، ص 137.

(4) انظر ابن عذاري: البيان المغرب الجزء الثالث في صفحات متفرقة. كذلك عنان: نهاية الأندلس، ص23 -24

استمر المرابطون في حكم الأندلس مدة ستين عاماً أخرى؛ وتعاقب في حكم غرناطة عدة من أمراء اللمتونيين [1] وسادتهم، من قرابة يوسف بن تاشفين؛ فلما انهارت دولتهم في افريقية، جاز الموحدون المتغلبون على دولتهم إلى الأندلس في سنة 540 هـ/ 1146م، وأخذوا يستولون تباعاً على القواعد والثغور، وسقطت غرناطة في أيديهم بعد ثلاثة أعوام (أي في سنة 543 هـ/ أواخر سنة 1148م) وذلك بالرغم مما بذله المرابطون، بقيادة قائدهم الشهير يحيى بن غانية وحلفاؤهم النصارى من جهود كبيرة للدفاع عنها. وقد لبثت غرناطة كباقي القواعد الأندلسية في يد الموحدين، يتناوب حكمها الأمراء والسادة من بني عبد المؤمن وقرابته، حتى كانت ثورة أبي عبد الله محمد بن يوسف بن هود سليل بني هود أمراء سرقسطة السابقين، على الموحدين وانتزاعه معظم قواعد الأندلس من أيديهم [2].

الحالة قبل ظهور غرناطة:

تلا ضَعْفَ السلطة الموحدية في الأندلس ضَياعُ العديد من قواعده، زيادة على عدم توفر القوة الكافية لمواجهة أسبانيا النصرانية المتنامية، التي كثيراً ما كانت تتحد لتوجه سويةً ضربة للأندلس، كان ذلك سبباً مهماً في هذا الاتحاد. وفي تلك الأثناء ظهرت محاولات وبرزت شخصيات، حاولت أن تمسك على الأندلس ما بقى منها، بالرغم من تلك مهمة شاقة جدّ عسيرة، لكن الأمل بها ظل قائماً والنفوس متطلعة لذلك والإمكانية متوفرة [3].

وأول شخصية أندلسية ظهرت في الميدان في هذا الأثناء، شخصية ابن هود، أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود الجُذامي، الذي لُقّب: أمير المسلمين سيف

---

(1) لمتونة هو اسم القبيلة التي ينتمي إليها المرابطون، ولذا يسمون أحياناً باللمتونيين.

(2) عنان: نهاية الأندلس، ص 24.

(3) عبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي، ص 513.

الدولة والمتوكل على الله [1]. كان يسكن مدينة مرسية ومن الأجناد فيها، حيث بدأ نشاطه سنة 625 هـ/ 1227م [2]، وقد دخلت تحت طاعته عدة مدن أندلسية: مُرْسية وقُرطُبة وإشْبيلية وغرناطة ومالقة والمرّية وغيرها [3].

استمر ابن هود حيناً يخوض مع الموحدين والنصارى معارك متعاقبة، ونشبت بينه وبين فرديناند الثالث (فرناندو: Fernando) ملك قشتالة، في ظاهر ماردة معركة انتهت بسقوط ماردة وبطليوس في يد النصارى في سنة 628 هـ/ 1230م، وانتهز فرديناند الثالث تلك الفرصة التي اضطرمت فيها المملكة الإسلامية كلها، بنار الحرب الأهلية، فسير قواته لمقاتلة ابن هود، وقد كان يبدو في نظره يومئذ زعيم الأندلس الحقيقي، كما كان يرى في مقاتلة النصارى عاملاً مهماً لتدعيم دعوته وسلطانه، فسار للقائهم والتقى الجيشان في فحص شريش على ضفاف نهر وادي لكة، ولكن ابن هود هُزم بالغرم من تفوقه في العدد وذلك في أواخر سنة 630 هـ/ 1233م، وسار فرديناند بعد ذلك لاجتياح "أبدة"، فسقطت في يده بعد حصار قصير سنة 631 هـ/ 1234م [4].

على أن سقوط قرطبة كان أعظم ضربة نزلت يومئذ بالأندلس، وكان ابن هود عقب هزيمته في شريش، قد جمع قواته، وسار لقتال خصمه ومنافسه الجديد "محمد بن الأحمر" في أحواز غرناطة، وألقي النصارى من جانبهم الفرصة سانحة للزحف على قرطبة. وكان الأمر فيها فوضى، وليس فيها من يجمع الكلمة، ويتزعم الدفاع عنها، وقد ترك ابن هود قرطبة لمصيرها مؤملاً أن يصمد أهلها

---

(1) انظر المغراب، 2 / 109، 251. كذلك العبر، 4 / 364، 365، نفح الطيب، 1 / 215، الحجي: المصدر السابق، ص 513.

(2) انظر الحلة السيراء، 2/ 308، الروض المعطار، ص 118، المغرب في حلى المغرب 2/ 251، أعمال الأعلام، 2 / 278. العبر 4 / 362.

(3) أعمال الأعلام، 2 / 277 - 280، المغرب 2 / 108 - 109.

(4) عنان: نهاية الأندلس، ص 27.

للدفاع عنها، أو يستطيع إنقاذها فيما بعد [1]، وقد حاصر النصارى قرطبة عدة أشهر، وكانت قوات قشتالة قد احتلت – قبل ذلك – بعض أبراج المدينة ودافع أهلها أروع دفاع؛ لكن الحصار كان قاسياً وشديداً أرهق المدافعين الذين حين انقطع عنهم الأمل في مساعدة اضطروا إلى التسليم، حيث دخل الجيش القشتالي قرطبة في 23 شوال سنة 633هـ / 22 يونيو سنة 1236م، وفي الحال حولوا مسجدها الجامع إلى كنيسة [2]. وقد كان هذا شعارهم كلما دخلوا قاعدة أندلسية، إيذاناً بظفر النصرانية على الإسلام، وكان لسقوط العاصمة الخلافية التالدة، أعظم وقع في الأندلس، وفي سائر جنبات العالم الإسلامي، وكان ضربة مميتة أخرى صوبتها أسبانيا النصرانية، إلى قلب الأندلس المفككة المنهوكة القوى [3].

توفي ابن هود، في مدينة المريَّة أوائل سنة 635 هـ/ 1237م [4]، وهو يُعد نفسه لا نجاد بلنسية وأميرها أبي جميل زيَّان [5]، وهو في ذروة سلطانه ومشاريعه، ولم تطل وثبته التي بثت إلى الأندلس مدى لحظة قصيرة أملاً خُلباً، سوى بضعة أعوام، فانهارت بوفاته دولته التي لم يتح لها كثير من أسباب الاستقرار والتوطد [6].

في تلك الآونة العصيبة، التي أخذت فيها قواعد الأندلس العظيمة: قرطبة، وبلنسية ومرسية وأشبيلية، تسقط تباعاً في يد النصارى، والتي أخذت الأندلس تواجه فيها شبح الفناء من جديد، كما واجهته أيام الطوائف، كانت عناصر الفتنة والفوضى تتمخض عن قيام مملكة إسلامية جديدة في جنوبي الأندلس هي مملكة غرناطة. وقيام هذه المملكة في الطرف الجنوبي للدولة الإسلامية القديمة، يرجع إلى

---

(1) عنان: نهاية الأندلس، ص 27، 28.

(2) عن سقوط قرطبة راجع ابن خلدون: العبر، 4 / 169، 183، نفخ الطيب، 2 / 585.

(3) عنان: نهاية الأندلس، ص 28 .

(4) أعمال الأعلام، 2 / 279 - 280.

(5) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص 515.

(6) انظر ابن خلدون: العبر، 4 / 168 - 170، الإحاطة، 2 / 90 - 94.

عوامل جغرافية وتاريخية واضحة؛ ذلك أن القواعد والثغور الجنوبية التي تقع فيما وراء نهر الوادي الكبير آخر الحواجز الطبيعية، بين أسبانيا النصرانية وبين الأندلس المسلمة، كانت أبعد المناطق عن متناول العدو وأمنعها، وكانت في الوقت نفسه أقربها إلى الضفة الأخرى من البحر، إلى عدوه المغرب وشمال افريقية، حيث تقوم دول إسلامية شقيقة، وحيث تستطيع الأندلس وقت الخطر الداهم، أن تستمد الغوث والعون من إخوانها في الدين. وقد كان لها في ذلك منذ أيام الطوائف أسوة، بل لقد كان صريخ الأندلس يتردد في تلك الآونة ذاتها على لسان شاعرها وسفيرها ابن الأبار القضاعي، حينما دهم العدو بلنسية في سنة 636 هـ/ 1238م، وكان الصريخ موجهاً من أميرها أبي جميل زيّان، إلى أبي زكريا الحفصي ملك افريقية (تونس)، وهو الذي ردده الشاعر في قصيدته الشهيرة التي مطلعها [1]:

أدرِكْ بخـيلكِ خـيلِ الله أندلُسـاً
إن السـبيل إلى مـنجاتها درسـاً
وَهَبْ لها مِنْ عزيز النصرِ ماألتمستْ
فـلم يـزلْ عِـزُّ النصـرِ ملتَمَسـاً
وحـامشِ ممـا تعانـيه حشـا شُـتها
فطالمـا ذاقـت الـبلوى صـباحَ مَسـاَ
يـا لـلجزيرةِ أضـحى أهلُهـا جـزراً
لـلحادثاتِ وأمـر جَدُّهـا تعسـاً

(1) انظر هذه القصيدة في نفح الطيب، 2/ 578 وما بعدها، وفي أزهار الرياض، 3/ 207 وما بعدها وارسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، ص 60.

في كلِّ شارقةٍ إلمامُ بائقة (بارقة)

يعودُ مأتمُها عند العدا عُرساً

وكل غاربةٍ إجحافُ نائبةٍ

تثني الأمانَ جذاراً والسّرور أسمى

تقاسَمَ الرومُ لا نالت مقاسمُهم

إلا عقائلَها المحجوبةَ الأنسا

وفي بلنسية منها وقرطبة

ما يذهبُ النفسَ أو ما ينزفُ النَّفَسا

مدائنٌ حلَّها الإشراكُ مبتسماً

جذلانَ وأُرْتحلَ الإيمانُ مُبتئِسا

وصَيَّرتْها العوادي العائثاتُ بها

يستوحِشُ الطرفُ منها ضعفَ ما أَنِسا[1].

عُمرِّت مملكة غرناطة ـــ رغم الصعوبات المتعددة في الداخل والخارج ـــ ما يزيد على قرنين ونصف. توالى على حكمها خلال تلك الفترة ما يزيد على عشرين حاكماً (سلطاناً)، وتمتع كثير من هؤلاء السلاطين بصفات ممتازة. كما ظهرت بغرناطة شخصيات، سياسية ذات كفاءات عالية وقدرات ممتازة، أدت أكثر من واجبها نحو البناء. فضلاً عن أهل الملكات العلمية وأصحاب المواهب الأخرى، وعلى تعدد المستويات كلها، عاونت في البناء والحفاظ على هذه البقعة

(1) عنان: نهاية الأندلس، ص 30 - 31. كذلك أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، ص 60.

الأندلسية الصغيرة، ربما كان بالإمكان أن تستمر الأندلس في الوجود، لكن العوامل الداخلية ثم الخارجية ساقتها إلى تلك النهاية المرُوّعة الكئيبة (1).

من تلك الصورة التقريبية التي ذكرناها باختصار نستطيع أن نلمس هول المصير الذي آل إليه الوجود الإسلامي في عهد ملوك الطوائف، ونستطيع أن نعرف كيف تمزقت أملاك الدولة العربية، وكيف تفككت أوصالها إلى وحدات متنافرة متنابذة لا تجمعها آمرة التوثب على بعضها والتحفز للاجهاز على ما تبقى من آثارها ومعالمها بعد أن كانت تجمع أصولها وجذورها وحدة الهدف ووحدة المصير، لقد غاضت كل هذه الأواصر الطيبة النبيلة لتحل محلها القطيعة والعداوة والبغضاء حتى أصبحت تلك الوشائج التي كانت يجب أن تكون جامعة فارقة وأمست لا تتحاشي أن تستنجد بالعدو المتربص ضد من هو في الحقيقية – أو يجب أن يكون في الحقيقية – أب أو أخ، أو ابن أم، أو صديق (2).

(1) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص 515 - 516.

(2) عبد الكريم التواتي: المصدر السابق، ص 273.

الفصل الثاني

تاريخ مملكة غرناطة
تحت حكم بني الأحمر

تاريخ مملكة غرناطة تحت حكم بني الأحمر أو بني نصر

(635 – 897 هـ/ 1237 – 1492م)

قامت مملكة غرناطة في ظروف متواضعة. وذلك أنه لما ضعف أمر الموحدين بالأندلس، وخرج عليهم محمد بن يوسف بن نصر بن هود الملقب بالمتوكل، وأخذت قواعد الأندلس تخرج من قبضتهم تباعاً، ينتزع بعضها ابن هود وثوار النواحي، والبعض الآخر بترعته النصارى، كان من الزعماء الذين ظهروا أثناء الفتنة أبو عبد الله محمد بن يوسف النصري المعروف بابن الأحمر سليل بنى نصر [1]، الذي يرجع نسبه إلى سعد بن عباده بن الصامت الأنصارى [2] سيد الخزرج، وأحد أكابر الصحابة [3].

وقد لقب بابن الأحمر لشقرة فيه، كما لقب بالشيخ اعترافاً له بزعامة بني نصر.

ولد محمد بن يوسف في مدينة أرْجُونة (Arjona)، من حصون قرطبة [4]، في جهة الشرق، سنة 591هـ/ 1195م، وهو عام معركة الأرك [5]. كان جندياً وافر الجرأة والعزم، يتزعم قومه، ويقودهم إلى مواطن النضال [6] دعا للمِّ الشَّمْل، فاجتمع حوله الكثير، وقد دخلت فيء طاعته عدة مدن، لا سيما في وسط الأندلس، قبل سنة 630هـ/ 1232م مثل جيان ومالقة وشريش، ثم كانت بيعتهُ، أميراً لمملكة غرناطة يوم الجمعة 26 رمضان سنة 635 هـ (1237 م) [7]، وكانت

(1) عنان: نهاية الأندلس ص 31.

(2) انظر ابن عبد البر: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق على محمد البجاوي، مكتبة نهضة مصر (القاهرة، بدون تاريخ) 2/ 594 (رقم: 944)

(3) ابن خلدون: العبر، 4/ 170.

(4) المصدر نفسه، 4/ 366، كذلك ابن الخطيب: اللمحة البدرية، ص 30.

(5) ابن الخطيب: الاحاطة، 2/ 99 - 100. أو اللمحة البدرية، ص 36.

(6) انظر نفح الطيب، 1/ 216، 447، المغرب، 2/ 109، الاحاطة، 2/ 92، الروض المعطار، ص 12.

(7) الاحاطة، 2 / 100 - 101. كذلك الحجي: الصدر السابق، ص 517.

مناطق أخرى قد دخلت تحت سلطان ابن هُود، شرق الأندلس وكذلك غرناطة [1]، لكن بوفاة ابن هود زال أكبر مُنافس لابن الأحمر، ودخلت غرناطة في طاعته، ثم استُدعى إليها، فدخلها في أواخر رمضان سنة 635هـ/ إبريل 1238م، وأصبحت مدينة غرناطة حاضرة المملكة، وانضمت إليها مناطق أندلسية أُخرى منها مناطق جنوبي الأندلس وشرقيها [2].

توفي أبو عبد الله محمد بن يوسف في جمادي الثانية سنة 671هـ/ ديسمبر 1272م، وخلفه في الحكم ابنه محمد الثاني (الفقيه) [3]، الذي استمر في الحكم إلى عام 702هـ/ 1302م [4].

لما مات محمد الثاني خلفه في الحكم محمد الثالث. وكان عالماً مولعاً بالفنون والآداب،و رغم كونه صغيراً، فبنى قصراً بالحمراء، وبنى المسجد الجامع بالقصر، ثم عزل محمد الثالث عام 709هـ/ 1309م، وخلفه أخوه نصر بن محمد، الذي تنازل عن الحكم عام 713هـ/ 1313م لأبي الوليد إسماعيل بن فرج بن نصر [5].

وكان عهد إسماعيل عهد سلم واستقرار، واستطاع أن ينتصر على جيوش قشتالة قرب إلبيرة، واستولى على بياسة سنة 725 هـ/ 1324م، ولكنه قتل في العالم التالي (726هـ/ يونيو 1325م) في أثناء إحدى حملاته، فتولى الحكم من بعده ابنه محمد الرابع، الذي نجح – رغم حداثته – في استرداد جبل طارق سنة 734هـ/ 1333م بفضل بني مرين، ولكنه قتل في أثناء عودته إلى غرناطة منتصراً، بالقرب من الجزيرة الخضراء في نفس السنة المذكورة، فتولى أخوه أبو الحجاج يوسف الأول السلطة. وكان يوسف هذا حامياً للآداب والفنون، فأقام أول نواة لقصر الحمراء بما فيه برج قمارش والحمام الملكي وباب الشريعة ومصلى البرطل.

---

(1) الاحاطة، 1/ 142. كذلك السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام، ص 23.

(2) عنان: نهاية الأندلس، ص 33. كذلك الحجي: المصدر السابق، ص 517.

(3) انظر ابن الخطيب: كناسة الدكان، ص 20.

(4) السيد عبد العزيز سالم: المصدر السابق، ص 24.

(5) المصدر نفسه، ص 25.

وظل يوسف الأول يحكم سنين كلها رخاء، وفي عهده تملك الأسبان قلعة يحصب والجزيرة الخضراء. وقتل سنة 755هـ/ 1354 م، وهو يؤدي صلاة العيد في جامع الحمراء. فخلفه ابنه محمد الخامس الغني بالله، الذي أكمل في قصر الحمراء ما كان أبوه قد بدأه فيه. ودام عهده حتى عام 794هـ/ 1391م. ثم تولى بعده عدة سلاطين ضعاف. وتوالت الأحداث في العهد الأخير الذي سبق مباشرة سقوط غرناطة في أيدي النصارى، وانبعثت الفتن بين أفراد الأسرة المالكة، وقامت الثورات تأييداً لأحدهم على الآخر. وكان آخر حلقة في سلسلة هذه الفتن الصراع الرهيب الذي دار بين أبي عبد الله محمد بن سعد، المعروف بالزغل، وابن أخيه السلطان أبي عبد الله محمد بن أبي الحسن ... ذلك الصراع الذي أدي إلى تسليم مدينة غرناطة في الثاني من شهر ربيع الثاني 897هـ/ 2 يناير 1492م [1] إلى النصارى الأسبان.

نشأت غرناطة في هذه الظروف الشاقة وغمرتها الأحداث التي كان بالإمكان أن تودي بها. لكن غرناطة لم تستطع المحافظة على كل الأندلس، التي كانت خاضعة لسلطان الموحدين، وخلال هذه الآونة العصبية التي ظهرت فيها مملكة غرناطة، سقطت العديد من القواعد الأندلسية في أيدي الأسبان؛ سقطت قرطبة عاصمة الخلافة سنة 633هـ/ 1235م، وبلنسية سنة 636هـ/ 1239م وأشبيلية سنة 646هـ/ 1248م، ثم تلتها مدن وحصون أخرى مثل: مرسية وشاطبة وجيان أما المدن والمناطق التي بقيت للمسلمين فقد احتوتها مملكة غرناطة، في الطرف الجنوبي من الجزيرة الأندلسية [2]، وهكذا بسط القشتاليون سلطانهم على سائر الأراضي الإسلامية الواقعة غربي ولاية الأندلس، وأخذت رقعة الدولة الإسلامية تنكمش بسرعة مروعة [3]. وقد أثارت هذه المحن التي توالت على الأندلس في تلك الفترة المظلمة من تاريخها لوعة الشعراء والأدباء، حيث نظم

---

(1) السيد عبد العزيز سالم: المصدر السابق، ص 25 - 26.

(2) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص 517 - 518.

(3) عنان: نهاية الأندلس، ص 38 - 39.

شاعر العصر أبو الطيب صالح بن شريف الرندي، مرثيته الشهيرة، التي ما زالت تعتبر حتى اليوم من أروع المراثي القومية وأبلغها تأثيراً في النفس، وفيها يبكي قواعد الأندلس الذاهبة ويستنهض همم المسلمين أهل العدوة لإنجاد الأندلس وغوثها [1]، وهذه بعض أبيات منها:

لكـل شـيء إذا مـا تمَّ نقصـانُ ∴ فـلا يُغـرَّ بطيـب العـيش إنسـانُ
هـي الأمـورُ كمـا شـاهدتَها دِول ∴ مَـنْ سـرَّهُ زمـنُ سَـاءَته أزْمَـانُ
وهـذه الـدَّار لا تُـبقى عـلى أحـدٍ ∴ ولا يـدوم عـلى حـالٍ لهـا شـأنُ
يمـزق الدَّهـر حـتمًا كَـلَّ سـابغةٍ ∴ إذا نبـت مشـرفيات وخرصـان

❖ ❖ ❖

فجـائع الدَّهـر أنـواع مـنوعة ∴ وللـزمان مسـرَّات وأحـزانُ
ولـلحوادثِ سـلوان يهونهـا ∴ ومـا لِمـا حـلَّ بالإسـلام سـلوانُ
دهـى الجزيـرة أمـرٌ لاَ عـزاء لـه ∴ هَـوَى لـه أحـد وأنهـد ثهـلانُ
فأسْأل بلنسـيةَ مـا شـأن مرسـية ∴ وأيـن شـاطبة أم أيـن جـيَّانُ
وأيـن قرطـبة دار العلـوم فكـم ∴ مِنْ عـالم قـد سمـا فيهـا له شأنُ
وأيْنَ حمص ومـا تحويهِ من نـزه ∴ ونهـرها العـذب فـياض ومـلآنُ
قواعـد كـنَّ أرْكَـان الـبلاد فمـا ∴ عَسَـى الـبقاء إذا لم تـبق أركـانُ
تَبْكي الحنفية البيضاء من أسفٍ ∴ كمـا بكـى لفـراق الإلـف هـيمانُ
عـلى ديـارٍ مـن الإسـلام خالـية ∴ قـد أقفـرت ولهـا بالكفـر عمـرانُ
حيث المساجد قد صارت كنائس ∴ فـيهن إلا نواقـيس وصـلبانُ
حتى المحاريب تبكي وهي جامدة ∴ حـتى المـنابر تُـرثى وهـي عـيدانُ

❖ ❖ ❖

(1) عنان: نهاية الأندلس، ص 42 . كذلك أرسلان: خلاصة تاريخ الأندلس، ص 69.

أعندكم نبأ من أهل أندلس ⁖ فقد سرى بحديث القوم ركبانُ
كم يستغيث بنا المستضعفون وهمُ ⁖ أسرى وقتْلى فما يهتزّ إنسانُ
ماذا التقاطع في الإسلام بينكم ⁖ وانتم يا عباد الله إخوانُ [1].

ضمت ملكة غرناطة، أيام بني الحمر، الطرف الجنوبي من شبه الجزيرة الأندلسية: جنوب نهر الوادي الكبير إلى البحر المتوسط، حيث الجزيرة الخضراء وجبل طارق، ومن لُورْقَة في ولاية مُرْسِيَة شرقاً إلى البحر المتوسط؛ ومن الشمال حتى قلعة يَحْصُب (Alcala la Real)، في ولاية جَيَّان، إلى شَذُونة في ولاية قَادس غرباً. شملت ثلاث ولايات كبيرة: ولاية غَرْنَاطَة في الوسط وفيها العاصمة غرناطة، وولاية المرّيــة (Almaria) في الشرق، وولاية مَالَقَة (Malaga) في الجنوب والغرب [2].

أما خواصها الطبيعية، فقد جمعت بين مزيج مدهش من المروج والوديان الخصبة، والجبال والهضاب الوعرة، كانت تمدها بثروات زراعية ومعدنية حسنة، ينمّيها ويضاعفها الشّعب الأندلسيّ الموهوب، بذكائه ونشاطه وبراعته المأثورة. وبذلك استمدت مملكة غرناطة من مواردها الطبيعية، أسباب القوة والمنعة والرخاء[3].

هذا وقد بلغ عدد سكان مملكة غرناطة زهاء خمسة أو ستة ملايين من الأنفس، وكانت غرناطة وحدها تضم أكثر من نصف مليون نفس. ويرجع سبب ازدحامها بالسكان إلى تدفق الوافدين عليها منذ أواسط القرن السابع الهجري، من بلنسيةّ ومرسية وقرطبة وإشبيلية وجيَّان وبيَّاسة وغيرها من المناطق الإسلامية التي سقطت في أيدي الأسبان، وبالرغم من أن العناصر الأساسية التي تتكون منها الأمة

---

(1) انظر نفح الطيب، 2/ 594، 595، أزهار الرياض، 1/ 47 - 50، عنان: نهاية الأندلس، ص 42 - 43.

(2) انظر الاحاطة، 1/ 115– 119 ، نهاية الأندلس، ص 55، التاريخ الأندلسي، ص 518.

(3) الشقندي، إسماعيل بن محمد: رسالة في فضل الأندلس "وردت ضمن كتاب فضائل الأندلس وأهلها لابن حزم وابن سعيد والشقندي" نشرها وقدم لها صلاح الدين المنجد (دار الكتاب الجديد، 1968م) ص 56.

الأندلسية، وهي العرب والبربر والمولدون ــ وهم أعقاب الأسبان الذين أسلموا منذ الفتح ــ لبثت على مر العصور دون تغيير، فإنه يلاحظ أن الجموع الوافدة على المملكة الإسلامية الجديدة، كانت تضم كثيراً من العناصر التي صقلتها حضارة أرقى، ومن ثمّ فإنه يمكن القول بأن الأمة الأندلسية الجديدة، كانت تمثل أطيب وأثمن ما بقي من القيم العنصرية والحضارة للأندلس القديمة [1].

أـ ثبات غرناطة وأسبابه:

عاشت مملكة غرناطة مائتين وخمسين عاماً بين قوات معادية تحيط بها من كل جانب، وقامت وحدها بشجاعة بعد أن جاءت نهاية المسلمين بالأندلس وبعد أن ضاع منهم الأمل والمستقبل، وكان أعداؤها يستغلون ضدها عوامل الزمن، وكلها كانت في صالحهم وحدهم، وأرادوا الكسب بأقل التضحيات، وشغلتهم عنها أيضاً انتصاراتهم على المسلمين بعد الصراع الطويل، وكانوا يترددون في العمل ضدها بعد أن أصبحت ملجأ للشجعان القادرين على العمل ببسالة في حرب الحياة أو الموت الأخيرة، وبعد أن ارتبطت بنوع من التحالف مع بني مرين حكام إفريقية [2].

ولم يكن من الميسور على مملكة غرناطة البقاء كُلّ تلك المدة في هاتيك الظروف، حتى لقد كان ذلك مثاراً للدهشة والاستغراب لعديد من الباحثين المحدثين[3]. ووَجْه الغرابة أن دولة بَهَذا الحجم اليسير، من المساحة والأعداد البشرية، مع تلك الضخامة من التكاليف والتضّحيات، تُواجه القوة العدديّة والإمكانيّات الواسعة لدى دول إسبانيا النصرانية، التي جعلت كلّ واحدة منها

---

(1) عنان: نهاية الأندلس، ص 63.

(2) على حبيبه: مع المسلمين، ص 262 - 263.

(3) من هؤلاء الباحثين المستشرقين الاسباني دي لاي كافيجاس، في كتابه:

- Isidro de la Cagicas, Los Mudéjares, Madrid, 1948, P.P 425, 426.

(منفردة أو متحدة) مُهاجمة مملكة غرناطة هدفاً في المقدمة، كلها تُعدُّ العدة، وتضع الخُطط. لذلك كانت هذه القرون مليئة بالصراع، وهي لا تخلوا من مهادنات، تدفع مملكة غرناطة فيها أحياناً المبالغ الباهظة. رغم ذلك فقد وجدت مدد من الهدوء والمُسالمة، لم يكن يحرص عليها حكام أسبانيا النصرانية التي غدت في هذا الوقت صاحبة القوة [1].

ولم يبق على ملكي قشتالة (Castilla) وأراجون (Aragon)؛ فرديناند وإيسابيلا، بعد أن دانت لهما سائر الثغور والقواعد الأندلسية الجنوبية والشرقية، لإتمام خطتهما في القضاء على دولة الإسلام بالأندلس، سوى الاستيلاء على غرناطة، آخر القواعد الباقية بيد المسلمين، ولم تكن غرناطة يومئذ مملكة أو دولة، بل كانت رمزاً فقط للمملكة الإسلامية الذاهبة، وكانت واسطة عقد تصرمت سائر حباته، وكانت كالمصباح المرتجف يخبو ضوؤه سراعاً، فلم يكن يقتضي إطفاؤه سوى الضربة الأخيرة. وقد رأى فرديناند وإيسابيلا أن الوقت قد حان لتسديد هذه الضربة، عقب استسلام مولاى الزغل وسقوط وادي آش وبسطة والمرية في أيدي النصارى. وقد سبق وأن عقد السلطان أبو عبد الله معهم معاهدة صلح جديدة لمدة عامين، على أثر سقوط مدينة لوشة في يد النصارى في شهر مايو سنة 1486 م[2]. (891 هـ).

ويرجع أسباب صمود وثبوت غرناطة في وجه الأعداء والنصارى إلى الأسباب التالية:

1- إن ما ضمته مملكة غرناطة كان أبعد - مكاناً - عن الوقوع في يد عدوٌ الأندلس، فهي أبعد عن تناوله، مع مناعة في الموقع. بجانب قربها من عُدْوة المغرب، وعدم وجود خطرٍ معادٍ أمام مسلمي غرناطة، يقف حائلاً دون

(1) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص 519.

(2) عنان: المصدر السابق، 215 - 216.

الاستعانة بإخوانهم في المغرب وبقية الشمال الإفريقي [1].

2- إن موقع مملكة غرناطة في الزاوية الجنوبية لشبة الجزيرة الأندلسية، لم يدعها تعيش طوال سنيِّنها وحيدة. بل كان الأخوة في المغرب لا يتأخرون عن عون إخوانهم الأندلسيين، وكان على رأس هؤلاء بني مرين أصحاب الدولة الفتية في عُدْوة المغرب، حيث اعتادوا ترك فرق دائمة في الأندلس للمرابطة على تلك الثغور الأندلسية، متفرغة للجهاد فيها. ولو استمرت الدولة المرينة على قوتها، أو خَلَفَتها مباشرة دولة قوية، لتغيرت مُجريات الأمور في الأندلس. مع ذلك فقد كان الأوْلى والأحرى بالأندلس أن تكوّن لنفسها من القوة الذاتية ما يعينها على البقاء، ولو تم ذلك لاتخذت الأحداث صيغة أخري [2].

ويحسن أن نشير هنا إلى أن ملوك المسيحية قد تركوا غرناطة وشأنها في أول الأمر لانصرافهم لتوطيد دعائم ملكهم فيما فتحوه من البلاد. ولكنهم ما لبثوا بعد أن استقر في أيديهم ما ملكوا أن بدأوا يشنون الغارات على أملاك غرناطة، وبادلهم المسلمون غارات بغارات ونكاية بنكاية، وكثيراً ما كانت تبلغ الغارات حدّ العنف الذي لا رحمة فيه، واتسم بعضها بالمغامرة وعدم التبصر يدفع إليها الحقد ويذكيها حب الثأر والانتقام [3].

3- أدى سقوط الكثير من المدن الأندلسية في أيدي النصارى إلى هجر مدنهم واللجوء إلى مملكة غرناطة ليحتمون بها، فتجمعت فيها كثرة من هؤلاء الذين برعوا في كل ميدان، حربياً كان أم مدنياً، حيث كان منهم، رجال الحرب والدفاع الأشداء الذين صمّموا على الوقوف والاستعداد للتضحية [4]، ومنهم نخبة كبيرة من العلماء والصنّاع ساهموا في ازدهار مملكة غرناطة وتقدمها.

---

(1) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص 519.

(2) المصدر نفسه، ص 519 - 520.

(3) عبد الحميد العبادي: المجمل، ص 173.

(4) الحجي: المصدر السابق ، ص 521.

4- الدّين الإسلامي: ذلك المقدار الذي بقي من الالتزام بالإسلام هو الذي وهب هذه المعاني معنى حياً وحياة حقيقية، وهو الذي جمع هذه الطاقات ودفعها للوقوف مجتمعة، والاستعداد للبذل، وفتق القدرات ورفع الهمم، كما كان العامل وراء وقوف بني مرين مع إخوانهم، ثم الانتفاع بكل الإمكانيات الأخرى ضمن الظروف المتاحة. إن المعاني الإسلامية التي بقيت لدى النَّاس واستمر من ذلك الغرس، في حدود ما أتيح له من أجواء التنمية، أنتجت ثمرات حضارية تحمل الألوان كافة وتمتلك صوراً شتى، رغم ما أصيب به من غَبَش أو جلّ بها من ظلام كان السَّبب فيما انبتَّ منها أو ذهب [1].

ب – حالة إسبانيا النصرانية أيام دول الطوائف:

بلغت دول إسبانيا النصرانية ــ في القرن السادس الهجري، الثاني عشر الميلادي خمساً، هي: قشتالة وليون وأرْاغون نافار (نبارة) والبرتغال.

وكانت أقواها مملكة قشتالة، التي نازل ملكها ألفونس الثامن الموحدين في معركتين فاصلتين، هما: الأرَك سنة 591هـ/ 1194م والعقاب سنة 609هـ/ 1212م، ثم ضمت مملكتي نبارّة وليون إلى الدول الأخرى.

وبجيوش قشتالة وملكها فرانْدُه الثالث ومن معهم كان سقوط قرطبة سنة 633هـ/ 1235م، وإشبيلية سنة 646هـ/ 1248م، وجيَّان سنة 463هـ/ 1070 م، فانتقلت عاصمة قشتالة من طليطلة إلى اشبيلية. وبجيوش ملك أرْاغون جايْمس الأول (Jame I) كان سقوط بلنسية سنة 636هـ/ 1238م. وقد كانت هاتان الدولتان (قشتالة وأرغون) تتعاونان في مهاجمة الأندلس والقضاء فيها على الدولة والأمة الإسلامية، في حين كانت البرتغال تعمل على ضم الأراضي الأندلسية الواقعة جنوبها في ولاية الغرب. وعلى هذا الخط في الوضع السياسي لاسبانيا النصرانية جرت الأمور حتى العصر الحديث، حيث توجد الآن في شبة الجزيرة

---

(1) الحجي: المصدر السابق، ص 522.

الأندلسية دولتان، هما: إسبانيا (من اتحاد مملكتي قشتالة وأرغون) والبرتغال التي استمرت مستقلة في الخط الذي سلكته [1].

هذا وقد توالى الملوك على عرش أراغون حتى كان يوحنا خوان الثاني الذي سعى بتزويج ابنه فرَّانْدُهْ الخامس من ابنة عمه إزابيلاّ القشتالية، وقد ترك يوحنا اخوان الثاني العرش سنة 884هـ/ 1479 م لابنة فرَّانْدُهْ الخامس، وتتم بهذا الزواج وحدة أسبانيا النصرانية، وبجيوش فرَّانْدُهْ الخامس وإزابيلاّ الملكين الكاثوليكيين، ومن معهم يكون استسلام غرناطة في الثاني من ربيع الأول سنة 897هـ/ 2 يناير 1492 م، آخر الحصون الإسلامية في شبة الجزيرة الأندلسية[2].

جـ- سقوط غرناطة:

في صباح اليوم الثاني من يناير 1492م سقطت غرناطة، وقام أبو عبد الله الصغير حاكمها باتخاذ أهبته للرحيل مع أهله وحشمه وخاصته، وفي الوقت الذي اقترب فيه النصارى من أسوار غرناطة، كان أبو عبد الله الصغير قد غادر قصره وموطن عزه ومجد آبائه إلى الأبد، في مناظر تثير الأسى والشجن [3].

وكان لسقوط غرناطة في أيدي الأسبان النصارى أسباب متعددة أهمها:

أ- الضغط الخارجي:

وهذا يمثل في عنصرين رئيسيين اقتصادي وسياسي:

فالعامل الاقتصادي يظهر في الأمور التالية:

1- قطع وحرق المزارع وقطع الطرق وانعدام التجارة والأمن.

---

(1) الحجي: المصدر السابق، ص 524 ، 525.

(2) المصدر نفسه، ص 529.

(3) عنان: نهاية الأندلس، ص 250.

2- استنزاف طاقات الدولة، وذلك بفرض الأتاوات عليها من قبل النصارى بين الحين والآخر.

3- قتل أعداد هائلة من المسلمين أثناء المعارك المستمرة بين الطرفين مما أدى إلى قلة القوى البشرية.

4- قلة المساعدات العربية من "بني مرين" وغيرهم. نظراً للصراعات الداخلية والهجومات الخارجية التي قام بها الحفصيون ضد بني مرين.

أما العامل السياسي فيتمثل في اتحاد مملكتي قشتالة وارجون – كما ذكرنا – بزواج فرّانْدُهْ وإزابيلاّ مما أدى إلى اتحاد قوى النصارى، ويقابل ذلك الاتحاد صراع دموي داخلي على السلطة في دولة بني الأحمر.

ب ـ الصراع الداخلي: الذي حدث بين الأسرة الحاكمة في غرناطة، منها ما حدث بين السلطان سعد بن محمد بن يوسف المستعين بالله المعروف بابن الأحمر وابنه أبو الحسن علي بن سعد بن إسماعيل، حيث ثار الأخير على أبيه بتحريض من بني سراج وأخرجه من غرناطة وامتلكها، ثم النزاع الذي حدث بين أبي الحسن على وأخيه أبي الحَجاج يوسف، ولم ينته هذا النزاع إلا بوفاة أبي الحجاج يوسف بعد ذلك بقليل، ثم النزاع بين أبو الحسن وأخيه أبي عبد الله محمد بن سعد المعروف "بالزغل" الذي كان والياً لمالقة، وقد لجأ الأخير إلى طلب المساعدة من ملك قشتالة هنري الرابع، كذلك النزاع الذي حدث بين أبو الحسن وابنه أبو عبد الله الصغير الذي انتهى بجلوس الأخير على عرش غرناطة وفرار أبيه إلى مالقة الذي كان يحكمها أبو عبد الله محمد بين سعد المعروف بالزغل أي الشجاع الباسل، حدث ذلك في أواخر 887هـ/ 1482م. وقد أطاعت الأمير الفتى أبي عبد الله الصغير غرناطة ووادي آش وأعمالها. وبقيت مالقة وغرب الأندلس على طاعة أبيه [1].

(1) عنان: نهاية الأندلس، ص 182 - 188.

وفي سنة 888هـ/ 1483م أسر النصارى السلطان أبو عبد الله محمد الصغير في أثناء غزوته لقلعة اللسانة: Lucena [1]. فاجتمع قادة وكبراء غرناطة وقرروا استدعاء أبي الحسن علي، السلطان المخلوع ليجلس على العرش مكان ولده الأسير. ولكن أبا الحسن كان قد هدمه الأعياء والمرض وفقد بصره، و لم يستطع أن يضطلع بأعباء الحكم طويلاً، فنزل عن العرش لأخيه محمد أبي عبد الله "الزغل" حاكم مالقة، ورجع إلى "المنكب" فأقام بها حيناً حتى توفي سنة 890هـ/ 1485م. وجلس "الزغل" على العرش يدير شؤون المملكة، وينظم الدفاع عنها [2].

استغل الملك فرديناند وزوجه الملكة إزابيلا أسر السلطان أبو عبد الله الصغير فتفاوضا مع المسلمين من أجل إطلاق سراحه، فانتهت المفاوضات بعقد معاهدة سرية مجحفة، تتلخص في دفع المسلمين جزية سنوية قدرها اثنا عشر ألف دوبلا [3] من الذهب، وإطلاق أربعمائة من أسرى النصارى الموجودين في غرناطة، وغيرها من الشروط [4]، وبالفعل تم الإفراج عن السلطان أبي عبد الله الصغير في أواخر 890هـ/ 1485م، فسار إلى بعض الحصون الشرقية، فقامت بدعوته، ثم سار إلى منطقة بلش Baza في شرقي بسطة، وأعلن نفسه ملكاً، ثم بدأت المفاوضات بين أبي عبد الله الصغير وبين عمه الزغل (ملك غرناطة) في عقد الصلح، وارتضى أبو عبد الله أن يتزل عن دعواه في العرش، وأن يدخل في طاعة عمه [5]، وفي رواية أخرى انهما اتفقا على تقسيم المملكة إلى قسمين، فيختص الزغل بحكم غرناطة،

---

(1) هذه بلدة صغيرة حصينة تقع اليوم في نطاق ولاية قرطبة، جنوب شرقي مدينة قرطبة.

(2) عنان: المصدر السابق، ص 190.

(3) الدوبل (Dobla): عملة ذهبية اسبانية قديمة كانت تساوي عشر بزيتات.

(4) ومن هذه الشروط أيضاً:

أ - أن يحارب عمه أبا عبد الله الزغلي.

ب- أن يتخلى عن تسميته لملك غرناطة.

ج - أن يحمل بدلاً من ذلك لقب دوق وماركيز وادي آشي.

(5) أخبار العصر، ص 19.

ومالقه، وألمرية، وبلش مالقة، والمنكب، ويختص أبو عبد الله الصغير بحكم الأنحاء الشرقية [1].

وفي أوائل شوال سنة 891هـ/ سبتمبر 1486م غادر أبو عبد الله محمد الأنحاء الشرقية، وظهر فجأة في ربض البيازين بقرطبة المعارضين لعمه الزغل، فاجتمع حوله من الأنصار، وأذاع أنه عقد الصلح مع النصارى. وشدد الزغل الضغط على أهل البيازين، وبينما هو على وشك القضاء عليهم، بلغة أن ملك قشتالة قد سير قواته إلى مدينة بلش مالقة Velez Malaga، وذلك في ربيع الثاني سنة 892هـ/ مارس 1487م [2] فهرع الزغل إلى مالقة في بعض قواته، وترك البعض الآخر لقتال أبي عبد الله الصغير وأهل البيازين، ولكن سقطت بلش مالقة في يد النصارى في جمادي الأول سنة 892هـ/ ابريل 1487م، وعاد الزغل بجنده ميماً صوب غرناطة. ولكنه علم أثناء مسيره أن غرناطة قامت أثناء غيابه بدعوة أبي عبد الله الصغير وأنه دخلها وتبوأ العرش مكانه في 5 جمادي الأولى من نفس السنة المذكورة، فارتد الزغل إلى وادي آش (Guadix) وامتنع فيها بقواته، وبذلك انقسمت مملكة غرناطة الصغيرة إلى شطرين يتربص كل منهما بالآخر [3].

وبعد خيانة من صهر الزغل الأمير يحيى النجار أمير "بسطة" و "ألمرية" Almeria وانضمامه إلى القشتاليين حذا حذوه أبو عبد الله الزغل، الذي كان متحصناً في وادي آش، فسارع بالانضواء تحت لواء ملك النصارى، ودخل النصارى مدينة وادي آش في أوائل صفر سنة 895هـ/ 30 ديسمبر 1489م. وعقد الزغل مع ملكيّ قشتالة معاهدة سرية، تنص على طائفة من المنح والامتيازات، بيد أنه لم يمض وقت طويل على ذلك حتى شعر مولاي الزغل أنه يستحيل عليه الاستمرار في ذلك الوضع المهين، فترل لفرديناند عن حقوقه

(1) عنان: نهاية الأندلس، ص 194، 195.

(2) أخبار العصر، ص 22 - 24، نفخ الطيب، 2 / 612.

(3) عنان: نهاية الأندلس، ص 199، 200.

وامتيازاته لقاء مبلغ ضخم، وجاز البحر إلى المغرب، ونزل في وهران أولاً ثم انتقل إلى تلسمان، واستقر يقضي بها بقية حياته في غمر من الحسرات والندم، ولبث عقبه هناك عصوراً يعرفون ببني سلطان الأندلس، وجاز معه كثيرون من الكبراء الذين أيقنوا أن نهاية الأندلس قد غدت قضاءً محتوماً [1].

وفي فاتحة سنة 1490م (أوائل صفر سنة 895هـ) أرسل الملكان الكاثوليكيان إلى السلطان أبي عبد الله الصغير سفارة يطلبان فيها تسليم غرناطة، فرد عليها أبو عبد الله بأن الشعب الغرناطي يأبى تسليم مدينته، وهو مصمم على المقاومة والدفاع عنها بكل ما أوتي من قوة. وقد استمرت الحروب حول حصون غرناطة سجالاً بين المسلمين والنصارى [2]، ثم حاصر فرديناند بجيشه غرناطة في 23 إبريل سنة 1491 م (12 جمادي الثانية 896 هـ) وأحرق جنوده الحقول القريبة التي تمدّ غرناطة بالمؤن فأتلفوا زروعها، وهدموا قراها، وأمعنوا في أهلها قتلاً وأسراً، وحولوا المرج الأخضر إلى بسيط من القفر الموحش، وقطعوا بذلك عن غرناطة موْرداً من أهم مواردها [3]، وصمم فرديناند على متابعة الحصار حتى تفتح المدينة أو تستسلم، ولما رأى أبو عبد الله الصغير أن مدينة غرناطة لا تستطيع دفاعاً، ولا تأمل الغوث والإمداد، ونزولاً على رغبة السواد الأعظم من الشعب، أرسل يطلب الهدنة من الملكين الكاثوليكيين، لكي يستطيع خلالها أن يتفاهم على شروط الصلح التي يمكن التسليم بمقتضاها [4].

---

(1) أخبار العصر، ص 31، نفخ الطيب، 2/ 613، 614، نهاية الأندلس، ص 210 - 213، السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام، ص 400.

(2) نهاية الأندلس، ص 216 - 222.

(3) أخبار العصر، ص 44.

(4) نهاية الأندلس، ص 226 - 228.

د ـ شروط التسليم:

كانت شروط التسليم سبعة وستين شرطاً [1]، منها تامين المسلمين على أنفسهم وأهلهم وأموالهم، وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم وعقارهم، وإقامة شريعتهم على ما كانت عليه، ولا يحكم على أحد منهم إلاّ بشريعتهم، وأن تبقى المساجد والأوقاف كما كانت، ولا يقهر أحد على ترك دينه، وأن يسير المسلم في بلاد النصارى آمناً على نفسه وما له من غير أن يجعل له علامة كما يجعل اليهود، وأن يحكم المسلمين، جماعة منهم وأن يطلق الأسبان سراح أسرى المسلمين وأن يكون لهم الحق في الخروج إلى إفريقية بأموالهم وأولادهم متى شاءوا [2].

أما الشروط الخاصة بسلطان غرناطة، فهي: أن يغادر إلى منطقة البشرات، ويجعل مقره في أندرش، على أن يخضع لملك قشتالة. واشترط ملك قشتالة قبل أن يدخل غرناطة أن يقدم إليه أهلها خمسمائة من أعيان المدينة بمثابة رهينة، خشية أن يغدروا بجيشه ويثبوا على رجاله [3].

غير أن القشتاليون نكثوا هذه الشروط بعد سنوات من سقوط غرناطة، و لم يوفوا بأي شرط من هذه الشروط.

وبالفعل تم تسليم غرناطة إلى النصارى في الثاني لربيع الأول سنة 897هـ/ 2 يناير 1492م، وذهب أبو عبد الله محمد بن علي النصري سلطان غرناطة السابق إلى المغرب وهو يتحسر على ملكه وسوء تصرفه، ونزل بميناء مليلة شمال المغرب، ثم اتجه إلى فاس حيث كان يعيش بها هو وأبناؤه على سؤال المحسنين [4].

---

(1) سبعة وستين شرطاً كما جاء في نفح الطيب (6 / 277) وفي الاستقصاء للناصري (4 / 104). ولكن عند محمد عنان (نهاية الأندلس، ص 230) يجعلها ستة وخمسين شرطاً فقط.

(2) عبد الحميد العبادي: المجمل، ص 180 - 181. كذلك حتاملة، محمد عبده: محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطة وبعدها، مطابع دار الشعب (عمان، 1977) ص 55 - 56.

(3) السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام، ص 404.

(4) عبد الحميد العبادي: المجمل، ص 181.

وهكذا اختتمت المأساة الأندلسية، واستولى القشتاليون على غرناطة آخر الحواضر الإسلامية في أسبانيا، وخفق علم النصرانية ظافراً فوق صرح الإسلام المغلوب، وانتهت بذلك دولة الإسلام في الأندلس، وطويت تلك الصفحة المجيدة المؤثرة من تاريخ الإسلام، وقضى على الحضارة الإسلامية الأندلسية الباهرة، وآدابها وعلومها وفنونها، وكل ذلك التراث الشامخ بالفناء والمحو. وشهد المسلمون احتلال العدو الظافر لحاضرتهم ودار ملكهم، وموطن آبائهم وأجدادهم، وقلوبهم تنفطر حزناً وأسى. على أن هذه المناظر المحزنة، كانت تحجب مأساة أليمة أخرى، تلك هي مأساة الملك التعس أبي عبد الله محمد بن علي آخر ملوك بني الأحمر وآخر ملوك الإسلام بالأندلس، الذي اختار العيش في بلدة أندرش [1] أولاً، ثم انتقل إلى المغرب، حيث جاز البحر في أوائل شهر أكتوبر سنة 1493م [2].

توفي أبو عبد الله الصغير بفاس سنة 940هـ/ 1533م "ودفن بإزاء المصلى خارج باب الشريعة" [3].

وفي سنة 905هـ/ 1499م، بدأت حملة إكراه المسلمين على التنصر، وواصلت محاكم التفتيش عملها في مواطن المسلمين بالأندلس، وفي سنة 907 هـ/ 1501م صدر قرار بتخيير المسلمين بين التنصر أو ترك البلاد كلها للمسيحيين وحدهم، فترك المسلمون أسبانيا ولجئوا لشمالي إفريقية، وفي سنة 1018هـ/ 1609م كانت أخر مرحلة من مراحل جلاء المسلمين عن أسبانيا كلها وانتهت قصة الصراع الطويل بطرد المسلمين من الأندلس وضياع بلادهم كلها، وكان بأسبانيا عند سقوط غرناطة ثلاثة ملايين مسلم تعرضوا كلهم للمحن والآلام فمات بعضهم بالعذاب، ولجأ الآخرون منهم إلى شمالي إفريقية ليعيشوا مع المسلمين هناك [4].

---

(1) عنان: نهاية الأندلس، ص 250.

(2) انظر أزهار الرياض، 1/ 67 ، 71.

(3) المقري: نفح الطيب، 6/ 281، الناصري: الاستقصاء، 4/ 135.

(4) علي حبيبه: مع المسلمين، ص 264.

الفصل الثالث

أسباب انهيار الوجود العربي في الأندلس

لقد أضحت الأندلس في أواخر النصف الأول من القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي تقدم إلينا ذلك المنظر المدهش ألا وهو منظر الصرح الشامخ، الذي انهارت أسسه، وتصدع بنيانه، وقد اقتضت أطرافها، وتناثرت أشلاؤها، وتعدد الرياسات في انحائها، لا تربطها رابطة، ولا تجمع كلمتها مصلحة مشتركة؛ لكن تفرق بينها بالعكس منافسات وأطماع شخصية وضيعة، وتضطرم بينها حروب أهلية صغيرة، والأندلس خلال ذلك كله تفقد مواردها وقواها القديمة تباعاً، ويحيط بها خطر الفناء من كل مكان(1).

أولاً: أسباب انهيار الوجود العربي في الأندلس:

والسؤال الذي يطرح نفسه هنا، هو: ماهي الأسباب التي أدت إلى انهيار الوجود العربي في الأندلس؟

وللاجابة عن هذا السؤال، نقول: أن هناك عدة أسباب رئيسية أدت إلى ذلك، أهمها:

أولاً: انعدام الوحدة في النضال العربي.

ثانياً: الثورات الداخلية وما أدت إليه من استقلال عن السلطة المركزية وتكوين امارات الطوائف.

ثالثاً: تدخل المولدين والبربر والصقالية في شؤون الدولة ومركزهم فيها.

رابعاً: التدخل النسوي في شؤون الدولة والاغتيالات السياسية والخيانة.

خامساً: اهمال أمر فلول الشمال وعدم استئصال شافتهم وما أدى إليه ذلك من حروب الشمال.

(1) محمد عنان: دول الطوائف، ص 14.

سادساً: التدخل الكنسي في توحيد المقاومة الاسبانية ضد العرب واليقظة القومية لدى أمم أوربا النصرانية بفضل احتكاكها بالاسلام عن طريق الحروب الصليبية.

سابعاً: الاستنجاد بالمغاربة وما نشأ عنه من تبعية الاندلس للمغرب والاستنجاد بالاجنبي.

ثامناً: انعدام الروح الإسلامية في علاقات العرب بالاسبان.

تلك هي بعض الأسباب التي أدت إلى التعجيل بالانهيار العربي في الأندلس، وليست كل الأسباب. فلنلق أضواء على كل نقطة من تلك النقط على حدة.

أـ انعدام الوحدة في النضال لدى العرب:

كان المسلمون في تلك الفترة متخاذلين، ينظر كل أمير إلى مصلحته الشخصية، لا إلى المصلحة العامة؛ فمثلاً كان ابن هود أميراً على مرسية، ودعا إلى تحرير الأندلس من الموحدين والنصاري على السواء، وكان المأمون الموحدى أميراً على بلنسية، فوقع العداء بين ابن هود والمأمون واضطر ابن هود أن يتحالف مع ملك قشتالة النصراني، وأن يتنازل له في نظير ذلك عن عدد من القواعد والحصون، وأن يتعهد بمنح النصاري في أرضه بعض الامتيازات. وكانت بلنسية في يد الموحدين، وتولى امارتها أبو عبد الله محمد أخو المأمون، وتلقب بالعادل، فلما رأى لجوء ابن هود إلى ملك قشتالة لجأ هو أيضاً إلى الإستغاثة بملك أراجوان، وتعهد له بأداء الجزية، فلما رأى سخط شعبه عليه من أجل ذلك، التجاء إلى ملك أراجون واعتنق النصرانية، ثم نجد والي مرسية، ووالي لقنت وأرْيولة، وغيرهما يعقدون الصلح مع ملك قشتالة على أن يعترفوا بطاعته، ويؤدوا له الجزية، وأن يظلوا في ظله يحكمون ويستأثرون بموارد بلادهم تحت حمايته. ولما كثرت المعارك بين ابن الأحمر، وملوك الأسبان النصارى، وأمراء الولايات، اضطر ابن الأحمر إلى لقاء ملك قشتالة في معسكره وتقديم الطاعة له، وتأدية جزية قدرها مائة وخمسون ألف قطعة من الذهب، واشترط ملك قشتالة على ابن الأحمر أن يعاونه في حروبه ضد

أعدائه، وأن يحضر مع القشتاليين المجلس النيابي القشتالي مثل سائر الأمراء التابعين للعرش(1).

ومما لاشك فيه أن هذا التفكك والانحلال واللامسؤولية كان من أكبر العوامل التي ساعدت الأسبان على مواصلة مقاومتهم وشجعتهم على المضي فيما اختطوه من برامج لاسترجاع وطنهم المغصوب وألبستهم معنوية فائقة حفزتهم لمضاعفة ضغوطهم على الوجود العربي، حتى تمكنوا في الأخير من القضاء على هذا الوجود(2).

ب ـ الثورات الداخلية:

قامت في الأندلس منذ أن وطئت أقدام العرب أرضها ثورات داخلية بين مختلف القبائل والعناصر التي كان يتكون منها الجيش الفاتح، وقد احتدم أوار هذه الثورات حتى أننا لنستطيع أن نؤكد أنها لم تخمد يوماً، وانما كانت تضعف حدّتها حيناً لتزداد عنفاً وشدة أحياناً، وقد مرّ بنا خلال دراستنا السابقة العديد من هذه الثورات.

كان عبور عبد الرحمن الداخل للأندلس سنة138 هـ/ 755م، ثم كانت وفاته سنة 172هـ/ 788م، فكانت مدة حكمه أربع وثلاثون سنة وقد حدث في عهده عدة ثورات استنفذت جهود الدولة، وأوشكت أن تنال منها، ومن أبرز هذه الثورات ثورة يوسف الفهري، الذي كان يعتبر نفسه الأمير الشرعي للأندلس، حيث لم يستطيع عبد الرحمن الداخل التخلص منه إلا في سنة 142هـ/ 759م، بعد أن قتله قائده عبد الله بن عمر الانصاري قبل طليطلة باربعة أميال، وأراح الأندلس من شره(3).

---

(1) أحمد أمين: ظهر الإسلام – مكتبة النهضة المصرية (القاهرة، 1999م) 44/3 ,45.

(2) عبد الكريم: النواتي: مأساة انهيار الوجود العربي، ص 480 –481.

(3) انظر ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص51– 52، أخبار مجموعة، ص100–101، ابن عذراي: البيان المغرب، 2/ 49– 50.

وفي عهد هشام بن عبد الرحمن (172- 180هـ/ 788- 796م)، قامت في عهده عدة ثورات، أولها ثورة أخويه سليمان وعبد الله المعروف بالبلنسي، واستطاع الأمير هشام القضاء على هذه الثورة، وذلك في سنة 174هـ/ 790م[1].

وفي عهد الحكم الأول بن هشام (الربضي)، قامت في عهده عدة ثورات أهمها، ثورة طليطلة سنة 191هـ/ 806م) التي حاول أهلها الخروج عن السلطة المركزية، واعلان استقلالهم التام، وذلك لحصانتها وكثرة المولدين بها والنصارى والمعاهدين، فاعمل الحكم فيهم السيف حيث قتل منهم في واقعة الحفرة في السنة المذكورة سبعمائة حسب ماذكره ابن عذاري[2]، بينما جعلهم ابن القوطية خمسة آلاف شخص[3].

أما عهد عبد الرحمن الثاني الأوسط، فقد شهد عدة ثورات أيضاً، أهمها ثورة طوريل البربري بتاكرُنّا، وذلك في سنة 211هـ/ 826م، كما حدثت في عهده فتنة المضربة واليمنية[4].

وفي عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن، قامت أخطر ثورة عرفتها الدولة الأموية، وهي ثورة عمر بن حفصون سنة 267هـ/ 880م، وقد استمرت ثورته إلى سنة 316هـ/ 928م حيث استطاع عبد الرحمن الناصر القضاء عليها[5].

وعندما افضت الإمارة إلى عبد الله بن محمد كانت البلاد تموج بالفتن، ومزّقها الشقاق، وكثر فيها الخارجون عن الدولة المتغلبون عليها، واستمر ذلك طوال ولايته، وقد تألب على المسلمين أهل الشرك ومن ضاهاهم من أهل الفتنة[6] وحتى في عهد الخلافة لم تخل الأندلس من الثورات والفتن الداخلية حيث وجد

---

(1) انظر ابن عذراي: البيان المغرب، 2/ 61، 63.
(2) المصدر نفسه، 2/ 69- 70.
(3) تاريخ افتتاح الأندلس، ص 65- 67.
(4) ابن عذاري: المصدر السابق، 2/ 81.
(5) انظر ابن عذاري: المصدر السابق، 2/ 104، ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 103.
(6) انظر ابن عذاري: المصدر السابق، 2/ 121، ابن الاثير: الكامل، 7/ 435.

عبد الرحمن الناصر أرض الأندلس مضطربة بالثائرين، فقضى طويل في اخماد تلك الثورات، واستئزال أهل العصبيات[1]، هو خلفائه من بعده.

جـ ـ تدخل الصقالبة والمولدين والبرابرة في الشؤون العليا للدولة:

1- الصقالبة:

يرجع الصقالبة Saqaliba (السلاف: Slavs) في أصلهم إلى الجنس الآري أو العرق الهند – أوربي[2]. وهم شعب بدوي والسمة الغالبة عليهم أنهم قبائل رعوية تتجول في آسيا ويقطنون المناطق الواقعة بين البحر الأسود وبحر قزوين[3]، وتمكن الصقالبة خلال القرنين السادس والسابع الميلاديين من الانتشار بسرعة عبر المقاطعات الأوروبية للدولة البيزنطية[4]، وقد حاربهم الامبراطور جستنيان الثاني سنة 688م وأرغمهم على الانتقال إلى آسيا الصغرى والاستيطان بها كجند مزارعين خاصة في ثغر الأبسيق: Opsikion. وعندما نشب القتال بين المسلمين والبيزنطيين في سنة 73هـ/ 692م انضم الصقالبة إلى جانب المسلمين، وانهزم البيزنطيين هزيمة ساحقة في ارمينية، لهذا شجع المسلمون الصقالبة على الاستيطان في بلاد الشام واستخدموهم كجند في حروبهم المتكررة ضد البيزنطيين [5]، ولهذا فقد عرف العرب الصقالبة في المشرق، ثم تعرفوا عليهم في الأندلس واستعانوا بهم في كثير من المناصب الإدارية والعسكرية في الدولة.

ويطلق اسم الصقالبة في الأندلس على الرقيق الذين كانوا يجلبون من البلاد السلافية ويعرفون بالفتيان، والخلفاء والخرس، والخصيان والمجابيب، وهي نعوت

---

(1) انظر المقري: نفح الطيب، 1/ 353.

(2) عاشور: أوربا العصور الوسطى، 1/ 608.

(3) Reynol, Sarraut, Sarmate, Encyclopaedia Britannica, Chicago – London, Toronto, Copyright, 1969, V 19, P 999.

(4) Sidney Painter, Ahistory of the Middle ages (284 - 1500) P 58.

(5) Ostrogarsky. G, History of the Byzantin State, Oxford, 1968, P 131.

تتردد كثيراً في المصادر التاريخية الأندلسية، أما تسميتهم بالخلفاء فلأن هذه التسمية كانت تطلق على أكابرهم وأما تسميتهم بالخرس فلأنهم لم يكونوا يعرفون لغة البلاد في بداية أمرهم فكانوا أشبه بالخرس[1].

وكان هؤلاء الصقالبة غير منسجمين مع بقية عناصر المجتمع الأندلسي الأخرى، كما كرههم المجتمع القرطبي، ولاسيما في أوائل الدولة الأموية، واستكثر الخلفاء الأمويون منهم حتى كان عددهم في أواخر الدولة الأموية كبيراً جداً[2].

كان الصقالبة بسبب فشلهم في الاستبداد بالحكم لنفسهم قد انقلبوا إلى قوة مخربة محطمة مدمرة يحيكون المؤامرات للإيقاع بمختلف ملوك ورؤساء العرب ويوغرون صدر هذا على ذاك، وكانوا الأداة الفعّالة في يد كل مخرب مدمر لا يبخلون في هذا الميدان باعانتهم على من يريدها، فعندما ظن على بن حمود أنه أصبح قوياً وأخذ لذلك يتأهب لقتال خصومه بقيادة عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر الملقّب بالمرتضى، هؤلاء الخصوم الذين كانوا قد تجمعوا في منطقة جيّان وطلب من الصقالبة عرقلة أعمال ابن حمود تقدموا لتحقيق هذه الرغبة بارتياح وتسللوا إلى الحمام، حيث كان ابن حمود يستحم وقتلوه سنة 408 هـ/ 1017م[3].

وقد اكتسب الصقالبة بمرور الزمن وجوداً خاصاً في اطار الدولة الإسلامية التي تعاقبت على الأندلس، وفي الحرس الخليفي بالذات حتى أنه في عهد يوسف بن تاشفين المرابطي، وهو البعيد عن أبهة الملك وفخامة السلطان لم يكن حرسه خالياً من هذا العنصر، وانما كانت فيه مئات من الصقالبة النصارى بوصفهم أنهم يخوضون القتال ويعرفون كيف يقاومون اخوانهم الأسبان[4].

(1) المقري: نفح الطيب 1/ 342، ابن بسام: الذخيرة، قسم 3، مجلد 1، ص 112، دندش: الأندلس، ص258.
(2) أحمد مختار العبادي: الصقالبة في اسبانيا (مدريد، 1953)، ص 11. كذلك دندش: الأندلس، ص259.
(3) عبد الكريم التواتي: المصدر السابق، ص 509.
(4) المصدر نفسه، ص 509– 510.

هذا وقد لعب الصقالبة دوراً مهماً في تاريخ الأندلس، إذ اعتمد عليهم بنو أمية، وقلدوهم أهم المناصب، لتفانيهم في الأخلاص لهم، وازدادت مكانتهم في عهد عبد الرحمن الناصر، فاصبحوا يلقبون بالفتيان الأبناء[1].

2- المولدون:

والمولدون هم عنصر المنحدرين عن الأسباب الذين خضعوا عن رضى للفاتحين، ومنهم من اعتنق الإسلام ولزموا مساكنهم القديمة، ومنهم من سبى عند الفتح واستقر بها عقبه، ومنهم من أسلم بعد الفتح أو سبي بعد الفتح واستقر بها عقبهما، وهذا الصنف على أجناس منهم الروم، والجلالقة، والقشتاليون، والأراغونيون، ومنهم من كان من اليهود مستقراً بها قبل الفتح واسلم عند الفتح أو بعده، أو دخل إليها بعد الفتح وأسلم، وأطلق عليهم المؤرخون العرب لفظ مسلماني، وجمعها مسالمة[2].

انتشر الإسلام في الأندلس انتشاراً واسعاً تجاوز كل تقدير في الحسبان، وامتزجت دماء الفاتحين من العرب والبربر بدماء أهل البلاد، ونشأ من ذلك جيل جديد من آباء مسلمين عرفوا بالمولدين، وقد احتفظ كثير منهم بأسمائهم القديمة، وقد أظهروا في كثير من الأحيان ميولهم الانفصالية عن سلطان قرطبة، وقد ظهر ذلك في حركاتهم الثورية المتعددة، وتعصبوا لأصلهم الأسباني- مع كونهم مسلمين - وتحالفوا مع النصارى في الأندلس [3]، وقد استغلوا فرصة ضعف الدولة الأموية في عهد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن، فثاروا في عدة نواحي مختلفة من الأندلس ضد السلطة المركزية [4]، ومن غير شك أن تلك الثورات قد كلفت الدولة الإسلامية ثمناً باهظاً من الدماء والأموال، وحالت دون تجميع الجهود وتعبئة القوة العربية، كلها لمناهضة العدو التقليدي للإسلام، ذلك العدو الذي استمر أبداً

- Levi - Proven cal Histoire de L Espayne Musulmane au Xe Siecle, P. 106, Noteto. (1)

(2) انظـر مؤلف مجهول: ذكر بعض مشاهير أعيان فاس في القديم، ص 23. كذلك ابن حيان: المتقتبس، 1/ 129 دندش: الأندلس، ص 249.

(3) سالم: تاريخ المسلمين، ص 128، 129، 130.

(4) انظر ابن عذاري: البيان المغرب، 2/ 133- 137.

يستغل كل فرصة ويتحينها للإجهاز على العرب والإسلام، وكان لهم يد – ولو من طريق غير مباشر– في تدبير المؤمرات التي أثارت الثورات الداخلية والخارجية على دولة الإسلام بالأندلس، حتى وقعت فريسة الأعداء الذين أجهزوا عليها دون رحمة أو ابقاء[1].

3- البربـــر:

لعب البربر دوراً مهماً في فتح الأندلس، فقد كان الجيش الذي قاده طارق بن زياد يتألف كله من البربر، وما كادت أنباء النصر الذي أحرزه طارق على القوط تصل إلى المغرب، حتى هرع إلى الأندلس عدد كبير منهم بغية التماس الغنائم أو الاستقرار في هذه البلاد الغنية. وظلت بلاد المغرب مصدراً للهجرات البربرية إلى الأندلس حتى قيام دولة بني أمية بل أننا نجد بعض خلفاء بني مروان يستكثرون من بربر العدوة، ويعتمدون عليهم في جيوشهم[2]، ويؤكد الأستاذ ليفي بروفنسال أن هؤلاء البربر استقروا بلا استثناء تقريباً في المناطق الجبلية [3]، بينما يرى الدكتور حسين مؤنس أن المسلمين الأوُل الذين دخلوا البلاد، عرباً وبربراً، استقروا حيث نزلوا أو ساروا، ولجأ فريق منهم إلى ما يناسب مزاجه من النواحي، فأما العرب، فكانوا يفضلون دائماً البسائط والمنخفضات والنواحى الدفيئة والقليلة المطر، في الجنوب والشرق والغرب، وناحية سرفسطة، وأما البربر فكانوا في بلادهم يعيشون في بلاد جبلية عالية، فألفوا مثل هذه البلاد في الأندلس، فاستقروا فيها باختيارهم. ويرجع أسباب ثورتهم إلى سوء معاملة العرب لهم[4]، واستئثارهم بالأراضي الخصبة دون البربر، لهذا كان البربر يضمرون للعرب السوء، وينتظرون فرصة مواتية فيثبون عليهم، وقد قاموا بعدة ثورات ضد العرب كان أكثرها في المناطق الشمالية من الأندلس، حيث كان يقيم العدد الأعظم من البربر، وقد قاموا بتلك الثورات بقصد طرد العرب الذين قادوهم لفتح هذه البلاد الغنية[5].

---

(1) عبد الكريم التواتي: مأساة انهيار الوجود العربي، ص 498.

(2) سالم: تاريخ المسلمين، ص 122.

(3) -Levi –Proven cal, Histoire, t, 1, p 87.

(4) حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص 388.

(5) سالم: تاريخ المسلمين، ص 124.

كان أول انتقاض قام به البربر ضد السلطة المركزية بالأندلس، هو الذي حدث بزعامة عثمان بن أبي نسعة الختعمي، حـــاكم الولايات الشمالية سنة 113هـــ/ 731م، وقد كان الرجل تولى قبل ذلك ولاية الأندلس كلها[1]، ثم عزل من هذا المنصب، حيث عين في الولايات الشمالية من الأندلس. وكان متعصباً للبربر، فتفاوض مع الدون أودوا أمير أكوتين، وأعلن عصيانه على السلطة المركزية، ولتثبيت مركزه اقترن بابنه الكونت "لافيجا"، ولولا يقظة عبد الرحمن الغافقي، الذي أرسل ابن زيان أحد قواده لمطاردته والتضييق عليه حتى احتمى بالشمال، حيث أخذ وقتل لكان عمله أول دولة اسلامية تفضل عن الدولة المركزية في الأندلس[2].

وكان انتفاضهم الثاني هو الذي قاموا به ضد عامل طنجة عمر بن عبد الله المرادي. الذي ينوب عن ممثل السلطة المركزية في افريقيا[3].

هذا وقد ندب الخليفة هشام بن عبد الملك كلثوم ين عياض واليه على افريقية لمحاربة البربر، وبعث معه ثلاثين ألف فارس، وعهد إليه بحكم افريقية وضبطها، فدارت بينه وبين البربر حروب عظيمة هزموا في بعضها كلثوماً وقتلوه[4]. وقد انتقل لهيب هذه الثورة إلى الأندلس، حيث ثار البربر هناك أيضاً ضد عبد الملك بن قطن الفهري، في أثناء ولايته الثانية، بجليقية وغيرها، فقتلوا العرب هناك وطردهم، فقاتلهم عبد الملك بشذونة بعد أن وصلته فلول العرب الذين كانوا محاصرين بسبتة بقيادة بلج بن بشر، فانتصروا عليهم، ثم تتبعوا فلولهم المجتمعة بنواحي طليطلة بوادي سليط، فهزموهم وقتلوا منهم آلاف عديدة[5].

---

(1) ذكـــر ابن عذاري أنه تولى ولاية الأندلس في شعبان سنة 110هـــ، وكانت مدة ولايته خمسة أشهر أو ستة أشهر، ثم عزل عنها وانصرف إلى القيروان فمات بها = البيان المغرب، 2/ 28.

(2) عبد الكريم التواتي: المصدر السابق، ص 514، 515.

(3) المصدر نفسه، ص 515- 516.

(4) ابن عذاري: البيان المغرب، 2/ 30.

(5) ابن عذري: المصدر السابق، 2/ 31.

هذا وقد ازداد نفوذ البربر بعد دخول الأمير عبد الرحمن بن معاوية بن هشام إلى الأندلس، حيث كان لهم اليد الطولى في توليته البلاد، و لم يقم البربر بأي ثورة حتى أواخر أيام الأمير الحكم الأول بن هشام، حيث ظهر البربر من جديد في ميادين الثورة ضد السلطة المركزية، فقد ثار قعنب، الذي حاول أن يضرب بين العرب والموالي، وبين البربر والمولوين، ثم ظهروا في ثورة طليطلة[1] التي قادها المولدون بتأييد من "أردينو" ملك اشتوريش، ثم أصبح البربر قريبين من كل حركة تمردية تعمل للاستقلال عن السلطة المركزية[2].

وثار في عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم سنة 236هـ/ 850م، رجل بربري يقال له "حبيب البُرْنُسي"[3]. بجبال الجزيرة، كما ثار في عهد الأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن خليل وسعيد ابنا مُهَلّب من وجوه قبائل البربر بكورة إلبيرة، واستمرا في ثورتهما إلى أن استنزل الناصر أولادهما بعد وفاتهما[4].

ومع مرور الأيام أخذ البربر يتسربون إلى مختلف مرافق الدولة ودواليبها وخاصة في الميادين العسكرية، فقد بلغوا في عهد الحاجب المنصور بن أبي عامر ذروة نفوذهم وأوج سلطانهم، حيث وصل بعضهم[5] إلى منصب الوزارة، وبدخول المرابطين إلى الأندلس، الذين يرجعون في أصلهم إلى أصل بربري يكاد ينتهي الوجود العربي، ويحل محله الوجود البربري[6].

كانت نظرة الأندلسيون إلى المرابطين في أول الأمر نظرة احترام وإجلال فبفضلهم هُزِمَ ألفونسوا السادس في معركة الزلاقة، ومن قبلها لم يجرؤ أحد من

---

(1) عـن هذه الثورة انظر ابن عذاري: البيان المغرب، 2/ 69- 70، ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، 65- 67.

(2) عبد الكريم التواتي: المصدر السابق، ص 518.

(3) ابن عذاري: البيان المغرب، 2/ 89- 90.

(4) المصدر نفسه، 2/ 137.

(5) تقلد الوزارة منهم جعفر بن على بن حمدون الزناتي.

(6) عبد الكريم التواتي: المصدر السابق، ص 518، 519، 536.

ملوك الطوائف على التصدي له، واعتبر الأندلسيون المرابطين مخلصهم من ظلم أمراء الطوائف، وكثرة ضرائبهم، وقسوة عمالهم، ولم يبد الأندلسيون تحمساً أو دفاعاً عن ملوك الطوائف عندما قرر يوسف بن تاشفين عزلهم، وأظهروا إعظامهم له، وأشربت قلوب أهل الأندلس بحب يوسف وأصحابه[1].

غير أن هذه النظرة مالبثت أن تلاشت بعد زوال الخطر الأسباني عن الأندلسيين، وبدأت تطفو على السطح من جديد تلك الحساسية تجاه بربر العدوة، فبرغم ما قام به البربر تجاه الأندلسيين خاصة المرابطين منهم كانوا ينظرون إليهم نظرتهم إلى البدو الغلاظ الذين لا عهد لهم بحضارة أو مدنية، بل هذه هي إحساساتهم تجاه جميع أهل العدوة[2]، ففي هذا الخصوص، يذكر المقري، بقوله: "ولما كان البربر بالقرب منهم (أي أهل الأندلس) وليس بينهم سوى تعدية البحر، ويرد عليهم من طوائف منحرفة الطباع خارجة عن الأوضاع، ازدادوا منهم نفوراً، وأكثر تحذرهم من نسب، أو مجاورة، حتى ثبت ذلك في طبائعهم، وصار بغضهم مركباً في غرائزهم، فلما علم البربر عداوة أهل الأندلس وبغضهم لهم أبغضوهم وحسدوهم، فلم تجد أندلسياً إلا مبغضاً بربرياً والعكس"[3].

وتعرض الأندلسيون في أمثالهم العامية للبربر والمرابطين، فوصفوا البربري بالجشع والطمع، وسخروا من المرابطين ولباسهم للعمائم لأن أهل الأندلس لم يعتادوا لباسها، وتهكموا من شجاعة البربر وتهاونهم في الدفاع عن الحصون وحراستها[4].

---

(1) عبد الله المراكشي: المعجب، ص 162، 163. كذلك دندش: الأندلس، ص 261.

(2) دندش: الأندلس، ص 262.

(3) نفح الطيب، ا/ 244.

(4) دندش: المصدر السابق، ص 263.

د- التدخل النسوي في شؤون الدولة وما تمخض عنه من اغتيالات سياسية وخيانة:

1- التدخل النسوي:

إذا كان من الأقوال المأثورة أن وراء كل عظيم امرأة، وأن وراء كل عمل فظيع امرأة حتى أصبح من المألوف أن نسمع هذه الكلمة تتردد على الاسماع في كل مناسبة، فتّش عن المرأة...، فإن هذه الحقيقة صادقة أيضاً فيما يخص انهيار الوجود العربي بالأندلس وكما كان لصبح أم هشام المؤيد أثر كبير في وصول الحاجب المنصور بن أبي عامر إلى السيطرة على مقاليد الدولة، كان لها أيضاً اليد الطولى في التعجيل بسقوط الدولة العربية في الأندلس، وعلى يديها تبدأ قصة ظهور المرأة في الحياة السياسية للدولة العربية، وبصورة بارزة وواضحة في بداية تضعضع الدولة العامرية، وأصبحت أصابعها الناعمة اللّينة تعبث بقلوب وعقول وأرواح رجال الدولة الكبار[1].

وإذا ما رجعنا إلى الوراء قليلاً إلى عهد الأمير عبد الرحمن الثاني بن الحكم، نجد جاريته طروب، التي كانت تطمع في ولاية ابنها عبد الله الإمارة بعد أبيه بدلاً من ولي عهده محمد، تحاول في سبيل تحقيق ذلك، تدبير مؤامرة لقتل الأمير عبد الرحمن، بالاشتراك مع أحد غلمان القصر ألا وهو "نصر الصقلبي"، ولكن هذه المؤامرة فشلت بسبب انكشاف أمرها سنة 236هـ/ 850م، وقتل فيها نصر بالسم الذي أراد به قتل الأمير عبد الرحمن[2].

وكان أول حادثة ظهرت في عهد سيطرة بني عامر، وظهرت فيها أصابع المرأة بوضوح، هي تلك المؤامرة التي ذهب ضحيتها عبد الملك بن أبي عامر المظفر بالله[3]، الذي قام بعده بالأمر أخوه عبد الرحمن، الذي خلفه في الحكم، فضلت

---

(1) عبد الكريم التواتي: المصدر السابق، ص 537- 538.
(2) للإطلاع على تفاصيل هذه المؤامرة انظر ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس، ص 76- 77.
(3) انظر ترجمته في البيان المغرب، 3/ 3- 37.

المرأة بعد أن تمكنت منها هذه الفكرة، تعمل للأنتقام لابنها القتيل[1]....، رغم أن عبد الرحمن ما انفك يغدق عليها من الهدايا أسناها ومن التحف أغلاها ومن النعائم ارقاها، فإن المرأة ظلت تعمل في الخفاء ضده وتحرض كل الطاقات في هذا السبيل فظلت تغري الثوار والطامعين في الحكم، بكل ما أوتيته من مكانة ومال، وقد كان خادمها "بشرى" الوسيط بينها وبين قادة المروانيين وبذل هذا الفتى جهوداً عظيمة لاقناع المروانيين بصدق نوايا سيدته تجاههم، وأنها حقيقة تسعى ليسترجعوا ملكهم من العامرين، وتم الاتفاق أخيراً على البحث عن هذا الرجل الأموي الذي يصلح لهذه المهمة ووقع الأختيار في النهاية على محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر[2].

وهكذا ففي الوقت الذي كان فيه عبد الرحمن (شنخول) يعتقد أن الأمور قد استتبت لمصلحته، كانت مؤامرة أموية تحاك ضده في الخفاء لنسف مشاريعه الواهية. وكان توقيت هذه المؤامرة متوافقاً مع خروج عبد الرحمن من عاصمته الزاهرة، ومعه عدد غير قليل من الجند سنة 399هـ/ 1009م، فما كاد يبلغ طليطلة حتى كان الثائر الأموي ينقضّ على قرطبة في عتمة الليل، وسرعان ما وضع يده على مؤسسات الحكم وامتلك ناصية الأمور فيها، حتى القصر الخلافي المنسي اقتحمه ليزيل قريبه الخليفة الأسمى ويجلس مكانه[3]، كما انقض على مدينة الزاهرة مقر الأسرة العامرية، فاجتثت جذور هذه الأسرة وقضت على آثارها[4]، وقد تلقب الخليفة الجديد بالمهدي[5].

(1) قـيل أنه أصيب بذبحة قلبية بعد وصوله إلى مدينة سالم فمات على أثرها سنة 399هـ/ 1009م أعمال الأعلام، ص 89.

(2) انظر أعمال الأعلام، صم 97. كذلك عبد الكريم التواتي: المصدر السابق، ص 538- 539.

(3) المقري: نفح الطيب 1/ 426. كذلك بيضون: الدولة العربية ص 372- 373.

(4) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 97.

(5) المقري: المصدر السابق، 1/ 426.

وصل الخليفة الأموي محمد المهدي إلى الحكم فوق ركام من الجماجم وأشلاء الضحايا وأنهار من العرق والدماء، وهكذا انتقمت هذه المرأة لنفسها وثأرت لابنها من الدولة كلها، ولولا تدبير هذه المرأة لما تسنى لهذا الأمير البئيس أن يصعد للحكم الذي أدى به إلى الهلاك إذلقى حتفه ــ كما نعلم ــ بسبب هذا الكرسي نفسه حين تمكن منه هشام المؤيد سنة 400هـ/ 1010م الذي عاد إلى الخلافة بمساعدة العامريين(1).

وعندما تولى غرناطة الأمير اسماعيل بن الأحمر، وانتصر في عدة مواقع، وسقط في يده كثير من المدن والقلاع.فلما عاد مرة من انتصار رائع قتل بباب قصره غيلة بعد ثلاثة أيام من رجوعه، قتله ابن عمه لأنه اختلف معه على فتاة رائعة الحسن، كانت من السبايا في إحدى المواقع(2).

ثم حدث أن كان بلاط بني الأحمر في آخر أيامهم في أسوأ حالة، فمن ذلك أن أمير غرناطة وهو أبو الحسن على، تزوج بابنة عمه التي تسمى عائشة الحرة، وكان من أشجع الناس وأذكاهم، وظل معها زمناً طويلاً، وولدت منه ولدين، أكبرهما أبو عبد الله محمد وهو الذي سقطت الأندلس في عهده، والثاني أبو الحجاج يوسف، ولكن تزوج أبو الحسن هذا في آخر أيامه بفتاة جميلة نصرانية، أسمها ثريا، وكان اسمها النصراني إيزابيلا، كانت قد أسرت وهي صغيرة، فربيت في قصور الحمراء(3)، واتخذت مولاة في دار أبي الحسن ثم تزوجها. وحظيت عنده، وفضلها على السيدة العجوز عائشة، وأولدها ولدين أيضاً هما سعد ونصر(4). ثم بدأت تتدخل في شؤون الدولة، وعرفت بالدهاء وسعة الحيلة ولا يستبعد أنها

---

(1) انظر أعمال الأعلام، ص 119، 130، 135- 139. كذلك نفح الطيب، 1/ 431- 438، البيان المغرب، 3/ 77 وما بعدها.

(2) أحمد أمين: ظهر الإسلام، 3/ 45.

(3) حسين مؤنس: رحلة الأندلس، ص 233.

(4) اعتنقا النصرانية ومنحا ضياعاً في أرجية، وتسمى أحدهما باسم "الدوق فرناندو دي جرانادا" أي صاحب غرناطة، وتسمى الثاني باسم "دون خوان دي جرانادا" = عنان: نهاية الأندلس، ص 299.

كانت جاسوسة على البيت الغرناطي لملك النصارى المحاربين، حناناً إلى أصلها، وأصبح البيت المالك بذلك قطعة من نار، الزوجة تركه ضرهما، وأولاد كل زوجة يعادون أولاد الزوجة الأخرى، ومالبثت غرناطة نفسها أن انقسمت انقسام البيت المالك، حتى أصبح أبو عبد الله يعادي أباه، ويعمل لمناهضته، وكذلك يفعل الأب، وكل يستنصر بملوك النصارى، ليعاونوه على خصمه، فكيف بعد كل هذا الفساد والفتن والاضطرابات تقوم مملكة[1] ؟

وهناك جانب آخر لتدخل النساء، كان سبباً في التعجيل بالانهيار العربي، وإن يكون من طريق غير مباشر، وهذا الجانب هو الهاؤهن المسؤولين عن القيام بواجباتهم باغراقهم في بحران الملذات والشهوات، إذ أن الانسياق وراء أهواء النساء يجر في الغالب إلى التردي في حماة الخلاعة والمجون، وربما الرذيلة والفسوق والفجور، وقد تجلت هذه الظاهرة بالخصوص أيام ملوك الطوائف، إذ كان من أهم أهداف بعضهم الجرى وراء النساء، وما يتحصل عليه من مباهج الدنيا وملاذ الحياة[2].

2- الاغتيالات السياسية والخيانة:

ومن لوازم تدخل النساء في شؤون الدولة حين يسمح لهن بهذا التدخل عن طريق شغف الرجال المسؤولين بهنّ، حدوث منازعات ومشاحنات لامتلاك قلوبهن والاستحواذ على مشاعرهن، وكثير ما تؤدي هذه المنازعات إلى التظاهر بأعمال الفروسية والقيام بما يستلفت الأنظار ويستهوي الألباب، ولا يؤدي كل ذلك إلاّ إلى التفكير في ازاحة الخصوم بما لا يجرح الشعور أو يمس بكرامة، وأيسر طريق لتحقيق هذه الازاحة هي الاغتيال الذي يحدث دون جلبة أو ضوضاء، ثم الخيانة إذا أخفقت هذه الوسيلة أو لم يقدر عليها... وأصبحت الاغتيالات السياسية بمرور

(1) عـنان: نهايـة الأندلـس، ص 185- 187. كذلك أحمد أمين: ظهر الاسلام، 3/ 46، مؤنس: رحلة الأندلس، ص 233- 234، السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام، ص 393.

(2) عبد الكريم التواتي: المصدر السابق، ص 541.

الوقت ــ وخاصة في أواخر أيام الدولة الأموية ودول الطوائف ــ هي الوسيلة الوحيدة للوصول إلى الحكم، وكان يصحب ذلك – غالباً– الخيانة والنساء[1].

3- الخيانة:

لعبت الخيانة دوراً خطيراً في الاجهاز على الوجود العربي بالأندلس، فإن الكثيرا من المعارك والحروب التي انهزم فيها المسلمون وتقهقروا فيها أمام النصارى لم يكن ذلك منبثقاً عن ضعف في الجيش الإسلامي، إذ كانت روح المغامرة والجهاد، وأمل الحصول على الغنائم والأسلاب تبعده وتجعله يستنكف إيقاع الهزيمة بنفسه، ولكن كان للخيانة، خيانة الانتهازيين والمغامرين من كبار القواد، أصابع خفية في تلك الانهزامات، حتى أنه ليستحيل إلاّ في النادر القليل أن نسجل هزيمة للجيش الإسلامي دون وجود خيانة وراءها.. وإذا كانت بعض الروايات التاريخية التي تتحدث عن فتح المسلمين للأندلس تعزو تغلب العرب على الأسبان لخيانة بعض حكام الأندلس من مسيحيين ويهود، فإن انهيار الوجود العربي كذلك كان بسبب الخيانات التي واكبت هذا الوجود منذ مبدئه إلى منتهاه[2].

هـ فلول الأسبان بالشمال وماشنه المسلمون من حروب ضدهم:

كان المسلمون غداة فتحهم لشبة الجزيرة الإيبيرية يتقدمون في زحوفهم، كالتيار الجارف لا يردهم عائق ولا يحول دون بلوغهم ما أملوه راد، وكانت انتصاراتهم من العظمة والضخامة بحيث أصبحوا يعتقدون جازمين أن الأمر تم لهم نهائياً، وأنهم أصبحوا سادة البلاد وأصحابها الشرعيين، وكانت الجيوش الاسبانية المنهزمة أمامهم وفي كل المعارك التي خاضوها معهم تتقهقر نحو الشمال تاركة الجنوب للجيوش الإسلامية الفاتحة[3].

---

(1) عبد الكريم التواتي: مأساة أنهيار الوجود العربي، ص 544، 551، 552.
(2) المصدر نفسه، ص 552– 553.
(3) المصدر نفسه، ص 557.

ويتهم العرب عادة بالخطأ أو الاهمال في عدم القضاء على العناصر المسيحية الهاربة إلى الشمال، وتركها تعيش هناك بعيداً عن رقابتهم، وربما كانت تشغلهم عنها محاولات لحل مشكلة الزعامة بالمنطقة، وما تبع هذه المشكلة من خلافات، أو لم يبد لهم في وجود هذه الجماعة القليلة خطر يهددهم، لأنها لم تكن تحمل راية المعارضة في تاريخها المبكر، ولم تكن تمثل جهاز الدولة، ولا أصحاب النفوذ فيها، ولم تكن رئاسة هاربة أو حكومة معلنة، وانما كانت بمجرد جماعة صغيرة، لم تقبل الخضوع لحكم المسلمين، والتزمت بالصمت والسكون، وبدأ تنظيمها السري بعيداً عن رقابة النظام وأصحابه، ثم انضمت لها أعداد أخرى ظهر خطرها أيام ضعف المسلمين، وخلافاتهم، وازداد تطورها وقوتها حتى تشكلت منها وحولها الإمارات المسيحية القوية بالشمال، وقبل المسلمون هذه الإمارات بالاضطرار بعد قيامها، وبعد قدرتها على الدفاع عن نفسها، ولم يجدوا معها حيلة، وفرض الأمر الواقع وجود هذه القوة، ولما لم تستطع دولة المسلمين أن تدخل معها في حرب فاصلة تنهي بها قصة حياتها، التزمت بالدفاع عن وجودها ولم تر التعرض للأخطار بعيداً عن مجال النفوذ المسموح به لها، بعد أن خرجت على وحدة المسلمين العامة، وقد سعدت الإمارات المسيحية في الشمال لفترات طويلة من حياتها بزعماء أقوياء مثل: بلاي أو بلا جيوس وشارل مارتل وغيرهما، ومما زاد في قوة هذه الإمارات ظهور الحركات القومية المتعصبة منذ القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، والتي كان يغذيها رجال الدين المتعصبين الذين تحالفوا فيما بعد مع الممالك المسيحية التي ظهرت فيما بعد[1]، والتي رفعت شعار استرداد الأراضي الاسبانية المغتصبة من أيدي المسلمين، في الوقت الذي كان فيه المسلمون في الأندلس قد بدأت تدب فيهم روح الضعف والوهن.

إن حروب الشمال استنزفت واستنفذت كثيراً من قوة وجود العرب والمسلمين وأقضت على الدوام مضاجع أمراء وولاة وخلفاء الأندلس، وجعلت

---

(1) علي حبيبه: مع المسلمين، ص 124- 128.

وجودهم مقلقاً مزعزعاً، وان كثيراً من الموارد الهائلة والامكانيات البشرية والمادية العظيمة كان يمكن أن تعود بالنفع العظيم والخير العمم على الأندلس كلها ولكن ضاعت بسبب هذه الحروب، وأن هذه الحروب كانت من أعظم وأخطر ما عجل أولاً بقيام الثورات الداخلية في كل من الأندلس والمغرب، يوم كان المغرب تابعاً للأندلس، ويوم أن أصبحت هي تابعة له وثانياً لسقوط دولة العرب في عموم الأندلس وتمزيق وحدتما في المغرب[1].

و- التدخل الكنسي في توحيد المقاومة الأسبانية للوجود العربي الإسلامي:

كان التدخل الكنسي في توجيه دفة الأحداث بالأندلس منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية الوجود العربي في هذه الديار أعظم الأثر في عرقلة هذا الوجود ووضع عقبات في طريقه، فقد كانت تكتسح كل شيء، وكانت توجه اهتمامها بوجه خاص لغزو معاقل النصرانية لا لتحطيمها ولكن لتصلح أوضاعها ولتذكير القيمين عليها بان الدعوة الجديدة إنما هي تتميم لدعوة المسيحية في مناهجها الصحيحة. وكانت هذه الفتوحات في بداية ظهورها تقابل من المشرفين على شؤون الكنيسة بالتوجس والحيطة، فلما أثبتت الأيام أن الدعوة الجديدة موشكة أن تغزو الكنيسة في عقر دارها بما حققته من انتصارات في كل مكان اتصلت به، وأخذ أولئك المشرفون على الكنيسة ينظرون إليها على أنها خطر يتهدد مصالحهم بالانهيار، وقرروا بأن التغاضي عن تقدم هذه الدعوة يجب أن يعد جريمة في حق الكنيسة، وأنه يجب على حماتها أن يتأهبوا للدفاع عن كنيستهم ومعتقداتهم قبل أن تجرفها في تيارها الدعوة الإسلامية الجديدة فكانت أن برزت حركة معارضة الإسلام بين صفوف رجال الكنيسة وإلى ما قبل فتح الأندلس، أو بعد فتحها وقبل قيام العرب بحملاتهم على فرنسا، وأوروبا وكانت الكنيسة الرومانية تحاول الدفاع عن حقوقها ومصالحها في الشرق حيث ظهر خطر الإسلام جلياً عليها، أما في الأندلس فلم تكن الكنيسة فكرت بعد في اتخاذ خطوات حاسمة لايقاف تيار الإسلام، فلما

(1) التواتي: المصدر السابق، ص 589.

تبينت خطأها حين تغاضت عن الفتوحات الإسلامية في الأندلس وكانت لم تقدر مدى أخطارها عليها قررت التدخل في توجيه الأحداث هناك أيضاً صيانة لمصالحها ودفاعاً عن حقوقها وحذراً من أن يطبق عليها الإسلام من الغرب[1].

وإذا كان التدخل الكنسي في توجيه الحروب الإسبانية ضد العرب والمسلمين لم يأخذ صورة واضحة أو لم يتبلور التبلور الكافي في سنوات الفتح الأولى نتيجة كون الفتوح الإسلامية من القوة بحيث يستحيل وقف تيارها أو حتى استغلال ما يبدو عليها من تضغضع بسبب بعض النزاعات الداخلية في البلاد الإسلامية، ونتيجة تفكك عرى وحدة الممالك الاسبانية وأمم أوربا النصرانية، فإن هذا التدخل ما أن لمس ظهور علائم التقهقر العربي أثر أفول شمس الأمويين حتى نشط نشاطاً محسوساً وأصبح يفرض وجوده ونظرياته على أمم النصرانية في الأندلس ويضع لنفسه المخططات الحربية والسياسية والاجتماعية ويتحكم في مصائر هذه الأمم توجيهاً وأهدافاً حتى لم يعد في امكان أي ملك من ملوك النصارى الأسبان أن يشعر بالطمأنينة مع نفسه وعرشه دون خضوعه الخضوع الكلي لرجال الكنيسة بحيث لا يتقدم أو يتأخر إلا باشارة منها أو بوحي من باباواتها حتى أصبح من المألوف أن لا يقدم أولئك الملوك على اتخاذ خطوة ما حتى في شؤونهم الخاصة دون رأي البابا[2].

هذا وقد ظهر التدخل الكنسي في توجيه الأحداث الحربية في الأندلس عندما كانت الكنيسة تقوم بحروبها الصليبية الاولى في الشرق، وتقدم نصارى اسبانيا برغبتهم في المشاركة في تلك الحروب، فمنعتهم الكنيسة من ذلك، مؤكدة لهم أن عملهم الحربي ضد المسلمين في الأندلس، يشكل دعامة عظمى وتأييداً كبيراً لعمل الكنيسة في الشرق، وهو بالتالي يساعدها على اتمام مهمتها الحربية هناك، من حيث أن محاربتهم المسلمين بالأندلس تعوق دون تقديم المسلمين معونة لاخوانهم

---

(1) عبد الكريم التواتي: المصدر السابق، ص 589- 591.

(2) المصدر نفسه، ص 597.

في الشرق، ومن غريب الصدف أنه في الوقت الذي أعلن فيه عن سقوط بيت المقدس[1] في يد الصليبين الغزاة ودقت الأجراس في كل أنحاء أوروبا فرحاً بذلك كانت قد سقطت بلنسية[2] في الأندلس في يد المغامر المرتزق المدعو "السيد الكامبيدور"[3] قبل ذلك بفترة وجيزة.

وكانت الكنيسة دائماً على أهبة الاستعداد لاغتنام أية فرصة تواتيها لدفع النصارى إلى محاربة المسلمين، فعندما عاد أبو يوسف يعقوب المنصور من الأندلس في رجب سنة 585هـ (1189م) إلى المغرب لاخماد ثورة داخلية نشبت في تونس، وكانت هناك جموع صليبية آتية من ولايات الراين الالمانية، واللّورين، وفريزيلاند، وكل الأراضي الفرنسية، ومن انجلترا والفلاندر، وكانت تتوجه كلها عبر جليقية إلى الشرق للمشاركة في الحروب الصليبية، وكان يحملها أسطول بحري قدرت عدد وحداته بستين سفينة، فرأت الكنيسة أن تدفع بهذه الجموع إلى خوض معركة بحرية هائلة ضد المواقع الإسلامية الواقعة في غرب الأندلس، وتمكنت بذلك من الاستيلاء عليها، وعلى مدينة شلب[4]، التي لم ينجو من سكانها الستين ألفاً سوى ثلاثة عشر ألفاً كان مصيرهم السبي[5]، وقد تمكن المسلمون ثانية من استرجاع هذه المدينة على يد الموحدين سنة 587هـ/ 1191م[6].

---

(1) سقطت مدينة القدس في يد الصليبيين في 15 يوليو 1099م (492هـ).

(2) تختلف الروايات الإسلامية في تاريخ دخول السيد الكامبيدور بلنسية فيقول ابن بسام أنه وقع في سنة 488هـ/ 1095م، الذخيرة، القسم الثالث، المخطوط، لوحة واب ويوافقه صاحب الذيل في البيان المغرب (306/3) ويجعله ابن الأبار في سنة 487هـ/ 1094م (الحلة السيراء، ص 189). وهذا التاريخ هو الارجح وهو يوافق الرواية القشتالية، وبه يأخذ الأستاذ: مننديث بيدال مؤرخ الكامبيدور حيث يقول: ان دخول الكامبيدور بلنسية كان في 15 يونيو سنة 1094م (Pidel: La Espana delcid, 1/ 485).

(3) انظر يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس، ص 111. كذلك التواتي: المصدر السابق، ص 600- 601.

(4) محمد عنان: عصر المرابطين والموحدين، 2/ 170- 178، 186- 189.

(5) التواتي: المصدر السابق، ص 607- 608.

(6) انظر المعجب في تخليص اخبار المغرب، ص 356، ابن عبد الملك المراكش: الذيل والتكملة 191/5، ابن الأبار الحلة السيراء، 2/ 272- 273.

لقد استمر التدخل الكنسي في الأحداث الحربية ضد المسلمين بالأندلس يتربص بالمسلمين الدوائر دون أن يكل أو يهن، وانما اتخذ سمة الاستماتة والعنف وآمن بوجوب إبادة المسلمين واخراجهم من هذه الأرض مهما كلف الثمن، وكانت لا تترك فرصة إلا استغلتها، وكانت من أبرز هذه الفرص تلك التي تمكنت فيها من تحقيق انتصارها على الإسلام في معركة العقاب[1]، التي حدثت يوم الاثنين الرابع عشر أو الخامس عشر من صفر سنة 609هـ/ 16 يوليو 1212م. ذلك أن الكنيسة عندما تبينت أن الموحدين لم تعد لهم القدرة الكافية على مواصلة زحوفهم المقدسة اثر وفاة خليفتهم أبي يوسف يعقوب المنصور، وتسلم ابنه محمد الناصر لدين الله الخلافة سنة 595هـ/ 1199م[2]، وتأكدت أن الخليفة الجديد لا يتوفر على الصفات البطولية التي كان يتميز بها أبوه والصرامة واليقظة قامت الكنيسة بتشجيع الأسبان بقيادة ملك قشتالة الفونس الثامن للاجهاز النهائي على الوجود العربي الإسلامي بالأندلس[3]، إذ أرسل البابا أنو سانت الثالث " Innocent, Inocencio III" الذي كان يتمتع بروح صليبية ـ إلى كل أمم أوربا عامة، وأساقفة جنوب فرنسا خاصة، حاظاً أياهم على أن "يسيروا بأنفسهم وأموالهم لمؤازرة ملك قشتالة، وأنه ـ أي البابا ـ يمنح كل من لبيَّ هذه الدَّعوة الغفران التام"[4]، كما أن البابا أنوسانت الثالث هدد ملك نبارَّة شانجة (شانجو السابع الملقب عندهم بالقوي) إذا لم ينقض الحلف والصداقة التي عقدها مع الموحدين وحثّه على التعاون مع ملك قشتالة ضد المسلمين[5].

هذا وقد آتت تحريضات البابا والكنيسة ثمارها، حيث استطاعت جموع النصارى أن تنتصر على المسلمين في معركة العقاب المذكورة، وتشتت قوهم،

(1) انظر الحيلة السيراء، 2/ 273، التكملة، 1/ 102، 194، 202، 2/ 624، الروض المعطار 137، المغرب، 2/ 73، نفح الطيب، 4/ 383. العبادي: المجمل في تاريخ الأندلس، ص 169.
(2) انظر الحجي: التاريخ الأندلسي، ص 491.
(3) التواتي: المصدر السابق، صم 608، 609.
(4) محمد عنان: عصر المرابطين والموحدين، 2/ 289.
(5) الحجي: التاريخ الأندلسي، ص 792.

وتخليداً لهذا الانتصار قررت الكنيسة من يومئذ أن يحتفل سنوياً في نفس اليوم الذي وقعت فيه المعركة ـ احتفالاً دينياً عظيماً تحت شعار ظفر الصليب(1).

وعندما سقطت عكا في أيدي المسلمين في سنة 1291م، أحدث ذلك موجة حزن شديدة في الأوساط الاوربية الدينية والسياسية والثقافية، ورأت البابوية عدم امكانية استعادة الأراضي المقدسة عن طريق الحرب، سخرت بعض اقلام كتابها لحث الصليبيين لتحرير تلك الأراضي من أيدي المسلمين، ولعل أبرز أولئك المبشر الاسباني "ريموند لول: Raymond Lull" (1232– 1315م)، حيث ألف كتاباً صدر سنة 1306م، بعنوان: Liber de Fine أشار فيه إلى ضرورة توجيه الجهود لطرد المسلمين من اسبانيا، أولاً، ثم العبور منها إلى الشمال الافريقي، والزحف من هناك على مصر. واقترح كذلك جعل كل من جزيرة رودس ومالطة وقبرص مراكز الانطلاق الرئيسية في الهجوم. كما أشار إلى وجوب الاستيلاء على القسطنطينية من أجل تلك الغاية. هذا بالطرق الحربية. أما من ناحية استعادة الأراضي المقدسة عن طريق التبشير، فقد دعا إلى دراسة اللّغة العربية والعلوم الإسلامية الدينية وغير الدينية من أجل عملية التنصير. وحاول تجربة مشروعه التبشيري بنفسه، إذ قصد الشمال الافريقي ثلاث مرات، قابل في المرة الأولى قاضي قضاة تونس "ابن عمّار"، وسجل ريموند مناقشاته مع ذلك القاضي في كراسيّ نشر بعد وفاته بعنوان: المساجلة الدينية بين ريموند وابن عمار. أما في زيارته الثانية فقد أمرت السلطات التونسية باخراجه من البلاد. إلا أنه توجه في المرة الثالثة إلى الجزائر حيث قتل رمياً بالحجارة(2).

تلك هي بعض الصور من التدخل الكنسي في توجيه دفة الحروب الصليبية ضد الإسلام والمسلمين والعرب في الأندلس، وهي تقيم الدليل القاطع على الآثار

(1) اشباخ: تاريخ الأندلس، ص 362 – 373.

(2) Runciman, S, A History of The (Cruades, kingdom of Acre Cambridge, 1955, II, P431– 432.

الخطيرة والمفجعة التي كانت تترلها بالوجود العربي إذا أتيحت لها الفرصة[1].

ز ـ الاستنجاد بالمغرب:

إن الاستنجاد بالمغرب رغم ما اتصف به ظاهرياً من عمل ديني انقاذي للجانبين يحمل في طياته من الجانب المغربي، بالإضافة إلى تحقيق مكاسب دينية وأخرى دنيوية شعوراً باقناع الأندلسيين بعجزهم عن الوقوف منفردين في وجه هجومات أعدائهم النصارى، وأنهم بدون المغاربة ما كانوا ليستطيعوا أن يحققوا حتى حماية وجودهم ضد هذا العدو التقليدي، ومن هنا أرادوا باتجاههم هذا اشعار الأندلسيين، بأن علاقاتهم القديمة بهم تلك العلاقات التي حملت الأندلسيين على أن يعتبروا المغاربة مجرد تابعين ومواد خام تمد الأندلس بما تحتاج إليه من وقود بشرية لخوض معارك الحروب التي كانت المعين الوحيد الذي يمد شرايين الحياة في الأندلس بالبقاء. إن هذه العلاقات كانت خاطئة ومجحفة لحقوق المغاربة. أما وقد استنجد بهم الأندلسيون معترفين بتفوق المغاربة وقوتهم، فإن من حقّ هؤلاء المغاربة أن يصبحوا متبوعين، وأن يستلموا مقاليد الأمور من أيدي الأندلسيين، الذين عجزوا عن الاحتفاظ بالأمة ولم يقدّروا قيمة المسؤولية الملقاة عليهم تجاه الإسلام والمسلمين بالأندلس، وأن يعملوا لا على اذاقة الأندلسيين ما كان أذاقه هؤلاء لهم ولكن أن يعملوا فقط على زحزحتهم عن مراكز القيادة مادامت الأيام قد أثبتت – وباعترافهم هم أنفسهم – أنهم غير قادرين على الأخذ بزمام الأمور بما تتطلبه من حزم ويقظة وقوة وإيمان. ومن العسير جداً، والوضعية تلك أن يشعر الأندلسيون بالاطمئنان إلى قوم تلك هي نواياهم، فكان أن تولد في نفوسهم بغض وكراهية لهؤلاء المنجدين انقلب مع مرور الأيام إلى تذمر واستياء فإلى أعمال تخريبية كانت تصيب الوجود العربي بأسره في الصميم، ومن هنا صحَّ لنا أن نعتبر الاستنجاد بالمغاربة من الأسباب التي عجلت بالانهيار العربي[2].

---

(1) التواتي: المصدر السابق، صم 620 – 625.

(2) المصدر نفسه، ص 626، 627.

ح- انعدام الروح الإسلامية في علاقات العرب بالأسبان:

جاء العرب الأوائل إلى الأندلس يحملون رسالة خالدة، ويبشرون بدين سمح، وقد كانت عقولهم صافية، وقلوبهم طاهرة، وأرواحهم نقية، وأهدافهم عالية، وثقتهم في الله عظيمة وفي أنفسهم وفي المستقبل عظيمة، وأخذوا يكبتون عواطفهم الأرضية. وغرائزهم المادية مغرقين أياها في تلك الحروب المقدسة التي كانت تجلب لأنفسهم الراحة و الاطمئنان ولارواحهم السمو و الصفاء قبل أن تجلب لجيوبهم المال والمغانم، ولذويهم المكاسب والأسلاب، وتستجيب لاحساسات نبيلة هي حب التفوق لصالح الآخرين، ونكران الذات لنفع الآخرين ونسيان الواقع الكالح في سجات الاخيلة المجنحة التي عبر عنها شاعرهم المحارب حين قال:

أقول لها، وقد جشأت وجاشت

مكانك تحمدي أو تستريحي

فلما أقبلت عليهم الدنيا تجر أذيالها، وأنهالت عليهم جوانبها اللّينة المباركة، وانقادت إليهم معطياتها الوارفة وباتت مقاليدها طوع أمرهم ورهن إشارتهم، أحسّوا أولاً طعم دفئها واستلذوا تذوق نعائمها فإذا هم أسارى الشعور الباطني يركنون إليها ويطمئون لنعيمها وإذا هم يتخيلون أن من حقهم، وقد بلغوا ما بلغوا بعد تقديم العديد من الضحايا والكثير من الدماء والدموع أن يستسيغوا تلك الخيرات ويستمرئوا ما تهيئه من شهوات وتيسره من ملذات فإذا كل ذلك يذكي الغرائز المادية التي تكون طعمت بمنبهات قوية جعلتها تستشري وتضري، فإذا هي المتحكمة في توجيهاتهم وأهدافهم وإذا هم أمامها عاجزون عن كتبها[1].

وانطلق العرب يشيعون منها غرائزهم الأرضية وانطلقت تلك الغرائز تقودهم نحو ما صوره لهم خيالهم المجنح من مباهج ومسرات، وهكذا ألفوا أنفسهم بعد معاناة طويلة لحياة الشظف والتقشف والحروب أمام ما أتاحته لهم بلاد

(1) التواتي: المصدر السابق، ص 639 – 640.

الأندلس من خيرات وما هيأته اجواؤها الخلاّبة من مغانم، وما حملت تلك الخيرات والمغانم من ملاهي وشهوات، فإذا هم ينحدرون إلى الواقع المرئي والمسموع الذي تهواه النفس الامارة بالسوء وتشتهيه الغرائز الفوارة بالحياة في كل ضروبها، وإذا بالكارثة في النهاية تحل بهم(1).

ومع مرور الوقت أصبح اقتناء الجواري والمغنيات وتمادي الغلمان وعقد مجالس المنادمة والشراب، بعد أن استقرت الدولة الأموية بالأندلس، وأطمأن أهلها إلى الأحداث، أموراً لا تثير أي تذمر، أو امتعاض، من أي كان حتى أن الأمير محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (238 – 273)- مع ما أشتهر به من تقوى وصلاح، وعدل ورفق بالرعية، وصرامة في الدين - كان لا ينكر على أبنائه أن يتخذوا الجواري(2)، ويقتنوا المغنيات، وأن يعقدوا للسماع مجالس وندوات(3).

وكما يقال، النّاس على دين ملوكهم، فإن الطبقات الشعبية معظمها وعلى اختلاف مراكزها الاجتماعية، انحدرت إلى نفس الهاوية، وسارت في نفس الطريق، ونسى بذلك أبناء العرب وأحفادهم - وهم منغمسون في هذه الأجواء المليئة بالملذات، والمشحونة بمختلف الشهوات - نسوا المهمة الإلهية الحقيقية التي من أجلها أسسوا وجودهم، بل ونسوا ارتباط وجودهم بتلك الرسالة الإلهية، وبنسياهم هذا، ثم باهمالهم وعدم مبالاتهم بالقّيم الدينية، وبعدم احتفاظهم على نظم الإسلام، عقيدة وسلوكاً، وعدم تشبثهم بأحكامه وقوانينه، وجدوا أنفسهم، مع مرور الزمن، لا يمتازون عن سواهم من بقية السكان الذين يتكوّن منهم المجتمع الأندلسي، إلا بما يقومون به من طقوس إسلامية، كان ما ترمز إليها قد اضمحلت آثاره في نفوسهم وواقعهم، ولم يعد باقياً من تلك الأثار إلا مظاهرها الباهتة، التي لا تغني الإسلام فتيلاً، ولا تعطهم أية قيمة أو اعتبار، وعلى العكس من هذا أظهرتهم هذه الظواهر على حقيقتهم البشرية المجردة في أبسط صورها وبكل ما

---

(1) التواتي : المصدر السابق، ص 640 – 641.

(2) ابن عذاري: البيان المغرب، 2/ 93.

(3) التواتي: المصدر السابق، 644– 645.

يتمثل في البشر من رغبات شخصية جامحة، وأنانية مقيتة بغيضة، فعمَّت الفوضى الاخلاقية، وانتشر التفسخ والانحلال في كل مواقف الدولة الإسلامية، حتى ظهرت المجتمعات العربية في الأندلس، وقد تهرت عناصر وحدتها، واختفت مقومات وجودها، فطمع فيها الطامعون ونال فيها المغامرون، ولم تعد الدولة الاّ مرتعاً خصباً لكل أفّاق شريد، وموئلاً طيباً لكل أفاك أثيم، وتكشفت تلك المجتمعات أخيراً وخصوصاً في عهد ملوك الطوائف عن رغبات متضاربة تتملص من كل عمل شريف، وتتهافت على كل عمل بجانب الاصلاح وتستنكفه الأخلاق[1].

وبعد... فتلك هي بعض الأسباب التي أمكننا أن نبرزها لمحاولة فهم أسباب الأنهيار الذي أصاب الوجود العربي في الأندلس، وقد تكون هذه الأسباب التي ذكرناها عملت مجتمعة على التعجيل بهذه الكالحة المروعة، ولكن مع ذلك كله، فإن شيئاً واحداً بقى لغزاً وسيظل كذلك لغزاً ومحيراً، وهو الانهيار الماحق والكلي لكل ما هو عربي وإسلامي في الأندلس... وهكذا كما كان الفتح عظيماً ورائعاً، فقد كان الانهيار رائعاً وعظيماً، وكان أعجوبة ستظل أسبابها خفية[2].

هذا وقد نتج عن انهيار الوجود العربي في اسبانيا نتائج عديدة منها:

لم تمض سبع سنوات – أو دونها – على سقوط غرناطة، حتى أُجبرت هذه السلطات المسلمين على التنصر "فلما رأى الطاغية (فرديناند) أن الناس قد تركوا الجوَاز وعزموا على الاستيطان والمقام في الوطن، أخذ في نقض الشروط التي اشترطها عليه المسلمون أول مرة، ولم يزل ينقضها فصلاً فصلاً، إلى أن نقضها جميعها، وزالت حُرْمة المسلمين، وأدركهم الهوان والذلّة، واستطال عليهم النصارى، وفُرضت عليهم المغارم الثقيلة، وقطع عنهم الأذان في الصوامع، وأمروا بالخروج من غرناطة إلى الأرباض والقرى، فخرجوا أذلّة صاغرين، ثم بعد ذلك دعاهم إلى التنصّر وأكرههم عليه، وذلك سنة أربع وتسع مئة (904هـ) فدخلوا

(1) التواتي: المصدر السابق، ص 647 – 648.

(2) المصدر نفسه، ص 653 – 654 .

فيه كُرهاً، وصارت الأندلس كلها دار كفر، ولم يبق مَن يجهر بكلمة التوحيد والأذان، وجُعلت في المساجد والمآذن النواقيس والصلبان، بعد ذكر الله تعالى وتلاوة القرآن، فإنا لله وإنا إليه راجعون، لا رادّ لما قضاه الله الملك الدّيان(1).

المهم أُحيط بالمسلمين، بعد سقوط غرناطة، من كل مكان وخاضوا – في أوقات – معارك قدّموا فيها التضحيات، سُبيت فيها نساؤهم وأولادهم. وبقوا وحدهم هناك، مجردين من الوسائل، عُزّلاً يذودون عن دينهم. رغم تغلبهم أحياناً، إّلا أنهم أُبيدوا في النهاية بصليبية عجفاء وحقد أسود(2).

ثانياً : محنة المسلمين بعد سقوط غرناطة ومحاكم التفتيش

لم تكن مصيبة المسلمين في الأندلس تنتهي بزوال سلطانهم السياسي وسقوط آخر معقل إسلامي بيد سلطات أسبانيا النصرانية المتحدة، بل إن مصيبة جديدة تبدأ، إنها مأساة الأمة هناك. مأساة تمثّل فيها الثبات والتصارع ضد الفناء الذي كان يريده لهم السلطان الأسباني، لا فناء الأفراد، بل قبلة فناء وإفناء العقيدة وإلغاء كل ما يتصل بذلك. وبقي المسلمون يقاومون ما يزيد على القرن دفاعاً عن عقيدتهم متمثلة في وجودهم وكل الأمور المتعلقة بهم، حتى الثمار الفكري والإنتاج الحضاري بمظاهره المختلفة، لذلك كانت محاكم التفتيش. تقود كل هذا ويتم بروح صليبية، تأخذ من تبدو عليه أية صلة بالإسلام. أو يضبط متلبساً يؤدي الشعائر أو يترسم عادة من العادات أو يحمل شارة من شارته، حتى الملابس والاغتسال اعتبرت دليلاً عليه، فكان من جراء ذلك أن أظهر عدد من المسلمين النصرانية وابطنوا الإسلام، وأطلق على هؤلاء اسم "المورسكيون Los Moriccos : المسلمون الصغار". لذلك ليس من السهولة أن نجد الآن أُسراً مسلمة في أسبانيا(3).

(1) أزهار الرياض، 1/ 68 – 69، كذلك نبذة العصر، ص 44، الحجي: التاريخ الأندلسي، ص 570 – 571 .

(2) الحجي: المصدر السابق، ص 573.

(3) انظر أندلسيات، 2/168-169، الحجي: التاريخ الأندلسي، ص 568 - 569 .

كوَّن الموريسكيون مجتمعاً متماسكاً متضامناً، قوياً بنشاطه وأدبه وذكائه، وقد بلغ عددهم في أواخر القرن السادس عشر الميلادي وفقاً لتقدير سفير البندقية زهاء ستمائة ألف نفس، وقدر البعض الآخر عددهم يومئذ باربعمائة ألف نفس. وقد تحالف الموريسكيون مع الأتراك والمغاربة ضد الأسبان، وبدأوا يشنون الغارات البحرية على الثغور والشواطئ الإسبانية، وقد لبثت هذه الغارات طوال القرن السادس عشر الميلادي، واستمرت دهراً بعد إخراج العرب المتنصرين من أسبانيا[1].

ـ هذا وقد قام العرب والمسلمون بعدد من الثورات في جبال البشرات، وقد باءت الحملات التي أرسلت إليهم بالفشل، وقاد إحدى هذه الثورات رجل صبَّاغ بغرناطة اسمه "فرج بن فرج" ينتمي إلى بني سراج، وقد جمع حوله جماعة من الساخطين وفرَّ بهم إلى الجبال، ولم يمض أسبوع حتى حمل معظم رجال البشرات السلاح سنة 976 هـ/ 1568م. ومنطقة البشرات من أحسن المناطق لنمو الثورات، فهي أرض مرتفعة بين سييرا نيفاذا والبحر، طولها نحو تسعة عشر ميلاً، وعرضها نحو أحد عشر ميلاً، تتخللها التلال الصلدة والأخاديد العميقة. واستمرت الثورة بالبشرات سنتين وامتازت أعمالها بكثير من البطولة والجرأة والجلد الجدير بالإعجاب، كما امتازت بكثير من أعمال القسوة والتعذيب والوحشية من كلا الفريقين[2].

وقد انتقم العرب لما نالهم من ضروب الإهانة والاضطهاد طيلة مائة عام فلطخوا الكنائس بالأقذار وذبحوا القسس ونكّلوا بمن وقع في أيديهم من المسيحيين. وكذلك فعل الأسبان بكل من وقع في أيديهم من العرب بل ذبحوهم بكل مكان؛ فقد ذبح جماعة من الأسبان مائة وعشرة من العرب كانوا مسجونين. وظل القتال على أشده وظلت القسوة والوحشية رائد الفريقين، وبذل العرب آخر

---

(1) عنان: نهاية الأندلس ، ص 366 ، 367 .

(2) عبد الحميد العبادي: المجمل، ص 182 ، 183. كذلك محمد حتاملة: محنة مسلمي الأندلس، ص 77-78 .

ما في كنانتهم من سهام ولكن شهدت سنة 978هـ/ 1570م نهاية العرب في أسبانيا، فلما جاء عيد جميع القديسين في هذا العام مجَّد الأسبان ذكرى الحواريين والشهداء واحتفلوا فيه بالقضاء على من عثروا عليه من العرب. وحكم الأسبان على العرب بالنفي ولم يأت عام 1017هـ/ 1609م حتى لم يبق في أسبانيا أحد من العرب، وبلغ من نفى منهم في المدة ما بين سقوط غرناطة والعقد الأول من القرن الحادي عشر الهجري/ السابع عشر الميلادي حوالي ثلاثة ملايين. ولم يدرك الأسبان أنهم بعملهم هذا يخربون بيوتهم بأيديهم، حيث قتلوا الأوزة التي تبيض الذهب – على حسب تعبير لين بول – فقد بقيت الأندلس قروناً طويلة في حكم العرب وهي مركز الحضارة والمدنية ومنبع الفنون والعلوم ومصباح الهداية والنور في أوربا في ذلك الوقت، ولم تصل أي مملكة في أوربا إلى ما وصلت إليه الأندلس في حضارتها وثقافتها. بل لم تبلغ الأندلس بعد ذلك في أزهى عصورها الأوج الذي بلغه المسلمون أثناء حكمهم للأندلس[1].

وأخيراً يمكن إجمال تلك النتائج في النقاط التالية:

1- الملايين الذين نزحوا من الأندلس انتقلوا إلى شمال أفريقية، وأدى ذلك إلى ظهور وتنشيط التجارة وصناعات مختلفة.

2- ظهور حرب جديدة، وهي استغلال العثمانيون لهؤلاء المهاجرين في حروب القرصنة ضد المسيحيين وإرهاق الأسبان، وعدم تمتعهم بخيرات الأندلس.

3- أما بالنسبة لأوربا فقد استفادت من حضارة العرب المزدهرة آنذاك، ولو استمر الوجود العزي فترة أكثر لكانت الفائدة أعظم.

4- أقيمت محاكم التفتيش عقب إنهيار الوجود العربي في الأندلس قتل فيها الآلاف من المسلمين وتنصيرهم.

(1) عبد الحميد العبادي: المصدر السابق، ص 183-184 .

ثالثاً : الحياة الفكرية في الأندلس

يصف الشقندي مدينة غرناطة، بقوله: "إنها دمشق بلاد الأندلس، ومسرح الأبصار، ومطمح الأنفس، لها القصبة المنيعة ذات الأسوار الشامخة والمباني الرفيعة. وقد اختصت بكون النهر يتوزع على ديارها وأسواقها وحماماتها وأرحائها الداخلة والخارجة وبساتينها. وزانها الله تعالى بأن جعلها مرتبة على بسيطها الممتد الذي تفرعت فيه سبائك الأنهار بين زبرجد الأشجار. ولنسيم نجدها وبهجة منظر حُورها في القلوب والأبصار، استلطافٌ يروق الطباع، ويحدث فيها ما شاءه الإحسان من الاختراع والابتداع. ولم تخل من أشراف أماثل، وعلماء أكابر وشعراء أفاضل، ولو لم يكن لها إلا ما اختصها الله تعالى به من كونها قد نبغ فيها من الشواعر(1). لكفاها ذلك".

تملك العرب السلطة المطلقة في الأندلس، وألقت إليهم البلاد بمقاليدها، وأصبح كل شيء عربياً ولو في الظاهر على الأقل. وكان عهد الداخل والناصر والمنصور ابن أبي عامر بالخصوص من أزهى عصور الوجود العربي في الأندلس وبالأخص في الميادين الحربية، وعندما اطمأنوا إلى هذا التمكن، وركنوا إلى حياة الدعة والاستقرار، أخذوا يحققون للبلاد المشاريع العظمى التي تضمن ازدهارها الاقتصادي، زراعة وتجارة وصناعة، وقد بلغوا في هذا الميدان أعظم الأهداف وحققوا المعجزات ولا سيما في عهد الناصر الذي ضرب فيه الازدهار الاقتصادي رقماً قياسياً، وبلغ مدخول الدولة من الكور والقرى خمسة آلاف وأربعمائة الف وثمانين ألف دينار، ومن السوق والمستخلص سبعمائة ألف وخمسة وستين ألفاً، وكان الفائض بعد وفاة الناصر قد بلغ خمسة آلاف مليون من الدنانير، ثم اتجهوا بالإضافة إلى كل ذلك إلى ميادين العمران من بناء القناطر والقصور والمساجد والمتاحف، ثم اتجهوا إلى قيام دولتهم على أسس ثابتة وقواعد راسخة حين فكروا في تدعيمها وإحاطتها بحياة علية زاخرة بشتى أنواع المعرفة وألوان العرفان، وهكذا

---

(1) الشقندي: رسالة في فضل الأندلس، ص 56.

اتجهوا، مطمئنين إلى خاطرهم، ومتفائلين بمستقبلهم وفخورين بماضيهم إلى التفكير في إقامة مملكة العلم والفكر بجانب السلطان والجاه الدنيويين، فكونوا المدارس والمكتبات، وكانت الحلقات العلمية في جامعات قرطبة التي انتشرت مساجدها وزواياها، ثم كانت الرحلات إلى الشرق ارتواء من معين العلم الأصلي واغترافاً من مجراه الصافي(1).

هذا وقد اعتمد المسلمون في الأندلس في تأسيس حضارتهم وتطورها على وسائل عديد، منها :

1- أن يُدعى علماء من المشرق إلى الأندلس فيملأوها أدباً ولغة، كما فعل أبو علي القالي، فقد كان مشرقياً، ورحل إلى الأندلس بدعوة من أميرها، وكان قد تثقف ثقافة واسعة في المشرق، وأخذ كثيراً عن شيوخه، وخاصة ابن دريد. وكان علماء المشرق قد قطعوا شوطاً بعيداً في جمع اللغة، والأشعار، وأخذوا ينتقون منها المختارات المختلفة، كما فعل الأصمعي، والمفضل الضّبيّ، فحوى ذلك كله أبو علي القالي، وسافر بعلمه إلى الأندلس، وكان رجلاً عالماً، وقوراً، حافظاً، فنشر ما شاء الله أن ينشر في الأندلس، وأخذ يروي مختارات حيثما اتفق، ثم يشرح ما احتاج إلى الشرح نظماً كان أو نثراً. ثم انتشر علم ابي علي القالي وصاعد الأندلسي، بين تلاميذهما، ومن تلاميذهما إلى تلاميذهم، وهكذا، كانا أول من وضعا أساس الثقافة المشرقية في بلاد الأندلس في اللغة والأدب(2).

2- أما الوسيلة الثانية: فقد رحل بعض الأندلسيين إلى المشرق الإسلامي، وندبوا أنفسهم لتحصيل علم من علومه، والتبحر فيه، ثم الرجوع إلى الأنددلس، لنشر ذلك العلم بين أهله، ومن خير الأمثلة على ذلك: يحيي بين يحيي الليثي (3)،

---

(1) عبد الكريم التواتي: مأساة، ص 657 - 658 .

(2) أحمد أمين: ظهر الإسلام ، 22/3 – 23.

(3) أصله من بربر مصمود، وكان فقيهاً محدثاً. توفي سنة 234 هـ/ 848م.

فقد رحل إلى المدينة المنورة، وتتلمذ للإمام مالك بن أنس، وأخذ عنه الموطأ، ولازمه، وخدمه كما سافر إلى مصر، وأخذ من الليث بن سعد، وعبد الله بن وهب، وعبد الرحمن بن القاسم، ثم نشر علمه في الأندلس، ومع تعفّفه عن القضاء، أسند إليه اختيار القضاة، فكان يختار من كان على مذهب مالك، وألّف حوله مجلساً يسمَّى مجلس الشورى، عيَّن أعضاءه، ووكل إليهم أمر الفتيا، وإن كنا لم نعرف الكثير عن نظام مجلس الشورى (1). وقد كان عبد الرحمن الثاني يجلّه ويخدمه ويأخذ بفتواه (2).

3- جمع الكتب: لقد روي عن الأندلسيين أنهم أدركوا أهمية جمع الكتب والحصول عليها بأي ثمن، ومن أبرزهم في ذلك الخليفة الحكم الثاني المستنصر بالله، فقد استجلب من بغداد ومصر وغيرهما من ديار المشرق والمغرب عيون التأليف والمصنفات الغريبة في العلوم (3)، حيث احتوت مكتبته على أربعمائة ألف مجلد، وأنهم لما نقلوها استغرقوا ستة أشهر في نقلها (4).

تعرض لنا الحضارة الأندلسية، صفحة من أجمل وأروع صحف الحضارة الإسلامية، والحضارة الإنسانية، بصفة عامة. وقد نشأت حضارة الإسلام في الأندلس في بيئة وظروف خاصة، واكتسبت بفعل المؤثرات التاريخية والإقليمية والاجتماعية، لونها الخاص ومميزاتها الخاصة (5).

وتحتل قصة الحضارة الأندلسية، في تاريخ الحضارات الأوربية مكانة رفيعة، وتملأ فراغاً كبيراً. ولكنها لم تنل مع الأسف مكانها من الرعاية والدرس في المصادر الإسلامية، ولم تكتب حتى اليوم كتابة شافية، وأغلب ما كتب عنها في مصادرنا شذور ونبذ متفرقة غير متناسقة، وتراجم لإعلام الفكر والأدب لم يعن

(1) أحمد أمين: المصدر السابق ، 23/3.
(2) المقري: نفح الطيب، 218/2 ، 219.
(3) أحمد أمين: المصدر السابق، 24/3.
(4) المقري: المصدر السابق، 395/1.
(5) عنان: نهاية الأندلس، ص 416.

فيها بدراسة الجوانب المهمة (1).

وإذا كان تاريخ الأندلس السياسي، يقدم إلينا صوره المتباينة، من الاضطرام والركود، والقوة والضعف، فكذا شأن الحضارة الأندلسية، فقد وصلت في ظل الخلافة الأموية في عهد عبد الرحمن الناصر وولده الحكم المستنصر بالله، حينما وصلت الدولة الإسلامية إلى أوج سلطانها السياسي، إلى ذروة القوة والبهاء، وإن لم تصل يومئذ إلى ذروة نضجها الفكري (2).

لقد ازدهر الطب في عهد هذين الخليفتين ازدهاراً كبيراً، وبرز بعهدهما عدد من الأطباء العظام، أمثال: أبو عبد الله محمد بن عبدون العذري القرطبي، والوزير أبو المطرف عبد الرحمن بن شهيد، صاحب كتاب الأدوية المفردة، وأبو القاسم خلف بن عباس الزهراوي، الذي خدم بطبه عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر وأبو عامر المنصور، وقد توفي في بداية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، أي حوالي سنة 404 هـ/ 1013م (3).

لقد سبق الأندلسيون غيرهم إلى العناية بعلم الجراحة فجعلوا منه علماً قائماً بذاته، ومرتبطاً بمعرفة علم التشريح، وربما يكون الزهراوي هو أول طبيب خصَّ الجراحة والجبر بمقالة ضافية تؤلف جزءاً كاملاً من كتابه الموسوعي الشهير "التصريف لمن عجز عن التأليف"، وقد اهتم بالجراحة قبله وبعده أطباء أندلسيون آخرون، إلاّ أنهم لم يخصصوا كتاباً لهذا الفرع الطبي المهم، أو مقالة تامة سوى "محمد بن فرج القربلياني"، الذي ألف كتابه الموسوم بـــ "الاستقصاء والابرام في علاج

(1) محمد عنان: نهاية الأندلس، ص 416.

(2) المصدر نفسه، ص 418.

(3) الشطشاط، علي حسين: تاريخ الجراحة في الطب العربي، منشورات جامعة قاريونس (بيروت 1999)، 174/1، 175.

الجراحات والأورام" [1]، وهو كتاب عظيم الشأن في مجال الجراحة وجبر العظام [2].

ونشطت الحركة العمرانية في عهد الخلافة نشاطاً كبيراً، حتى أصبحت قرطبة تضاهي العواصم العربية الأخرى؛ بغداد، والقاهرة، ودمشق وغيرها، وأصبحت تستقطب الآلاف من البشر، وتزدحم بآلاف المنازل والقصور، وعشرات الفنادق والحمامات والمتاجر، وتخترقها الشوارع بالأسواق المرصوفة، وتعج أروقة المساجد فيها بالعلماء، والفقهاء، وطلاب العلم، كما تجتذب قصورها أجواء الشعر والغناء [3]، وقد عمل الخليفة الناصر على جعل حاضرته "قرطبة" جديرة بأن تكون حاضرة الخلافة، فأخذ يحيط نفسه بهالة من فخامة الملوك وأبهة الخلفاء، وقامت في قرطبة حركة معمارية لم تشهد لها نظيراً من قبل، ونشطت الحركة على وجه خاص منذ سنة 325هـ/ 936م، واستمرت في عهد الحكم المستنصر بالله [4]. وفي ذلك يقول ابن عذاري: إن الناصر "قد أسس الأسوس، وغرس الغروس، واتخذ المصانع والقصور"[5].

وفى بداية سنة 329هـ/ 940م، أكمل الناصر بناء القناة الغربية التي يجرى منها الماء العذب من جبل قرطبة إلى قصر الناعورة غربي قرطبة، يجري ماؤها بشكل عجيب، وصنعة محكمة، إلى بركة عظيمة، عليها أسدٌ عظيم الصورة، بديع الصنعة، شديد الروعة لم يشاهد أبهى منه فيما صوِّر الملوك في العصور الماضية، مطلي بذهب إبريز، وعيناه جوهرتان لهما تلألؤاً شديداً [6].

---

(1) يوجد مخطوطاً في الخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم (1716) طب.

(2) الخطابي، محمد العربي: الطب والأطباء في الأندلس، دار الغرب الإسلامي (بيروت 1988)، 1/34-35.

(3) إبراهيم بيضون: الدولة العربية، ص 298.

(4) السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة، 1/60.

(5) البيان المغرب، 2/333. كذلك ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 8.

(6) المقري: نفح الطيب، 1/564 – 565.

هذا وقد أنشأ الناصر مدينة "الزهراء" بقطربة على بعد ثمانية كيلو مترات شمال غرب قرطبة على سفح جبل العروس من جبال قرطبة، ابتُدئ بنيانها في أول سنة 325هـ/ 936م، حيث جلب إليها الرُّخام من قرطاجنة وتونس، وكان فيها من السواري أربعة آلاف وثلاثمائة وثلاث عشرة سارية [1].

ومن الأعمال المعمارية المهمة التي قام بها الناصر إعادة بناء مدينة "سالم: Medinacele" التي تقع شمالي مدينة مدريد بحوالي 153 ك.م، في الطريق الذي بين مدريد وسرقسطة، وجعلها ثغراً حربياً لمواجهة إمارة "قشتالة" الناشئة، وذلك في سنة 335 هـ / 946م، واشرف على بنائها مولاه "غالب" وبنيت أحسن بناء، وصارت شجّاً في حلوق الكافرين، وأصبحت منذ ذلك الحين قاعدة للثغر الأوسط إلى جانب طليطلة قاعدة الثغر الأدنى، وسرقسطة قاعدة الثغر الأعلى [2].

وأضيف إلى قصر الخلافة بقرطبة مجالس وقاعات، ثم أنشئت مدينة "الزاهرة" في خلافة "هشام المؤيد"، واتصلت العمارة في مباني قرطبة والزهراء والزاهرة، بحيث كان يمشى فيها لضوء السراج عشرة أميال [3].

ومما ساعد على تقدم العمارة في عهد الناصر شغفه الشديد بالبنيان، لهذا فقد خصص له ثلث جبايته [4].

ومما يثير الإعجاب في قرطبة، مسجدها الجامع العظيم، الذي واكب تاريخ الأمويين في الأندلس، بحيث كاد يكون لكل أمير منهم بصماته الواضحة عليه، فيصبح مع كل عهد أكثر اتساعاً وأروع جمالاً، حتى إذا كانت خلافة "الناصر" وابنه "الحكم"، بلغ أقصى اتساعه، فمن ناحية الجنوب أصبح محاذياً لنهر الوادي الكبير [5].

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، 231/2. كذلك ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 38.

(2) ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص 466. كذلك ابن عذاري:" البيان المغرب – المغرب.

(3) المقري: نفخ الطيب (نقلاً عن الشقندي) 665/2، 203/4. كذلك السيد عبد العزيز. سالم: قرطبة، 6/1

(4) ابن عذاري: المصدر السابق، 231/2.

(5) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص 38. كذلك إبراهيم بيضون: الدولة العربية، ص 299.

ومن إضافات "الناصر" لهذا المسجد أنه أقام له صومعة جديدة كبيرة من الحجر سنة 340 هـ / 951 م، وذلك بسبب تصدع الصومعة (أو المئذنة) القديمة، التي كان طولها أربعين ذراعاً، كما كانت ذات مطلع واحد، فجاء "عبد الرحمن الناصر"، فأمر بإزالتها وجعل للمئذنة الجديدة مطلعين فصل بينهما بالبناء فلا يلتقي الراقون فيها إلا بأعلاها. وكان لكل مطلع مائة درج وسبعة أدراج، وطولها ثمانون ذراعاً إلى وقوف المؤذّن، وفي أعلا ذروة المنار ثلاث رمانات تُغْشى النَّواظر، بشعاعها وتخطف الأبصار بلمعانها؛ الأولى مفروغة من الذهب، والوسطى من الفضة، والثالثة من الذهب أيضاً، ووزن كل رمانة قنطار واحد [1].

ولما انهارت الخلافة الأموية، واضمحلت النظم السياسية والاجتماعية، وسادت الثورة والفوضى أرجاء الأندلس، وهلكت معظم الآثار العمرانية والفكرية في غمر الفتنة، ذوت الحضارة الأندلسية في قصورها ومنشآتها، وفي مجتمعاتها، وأنيعت في ظلها دولة التفكير والأدب، وعرفت الأندلس في هذه الحقبة المضطربة من تاريخها، طائفة من أعظم مفكريها وأدبائها وشعرائها، مثل الفيلسوف ابن حزم (م: سنة 456هـ/ 1064م) وابن حيّان أعظم مؤرخى الأندلس (م: سنة 469هـ/ 1095م) وتلميذه الحميدي (م: سنة 488هـ/ 1095م)، ومن الأدباء والشعراء، بل لقد كان ملوك الطوائف أنفسهم في طليعة العلماء والأدباء والشعراء مثل الأمير العالم عمر المتوكل بني الأفطس صاحب بطليوس والشاعرين الكبيرين، المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية، والمعتصم بن صمادح صاحب ألمرية [2]، ولكن سرعان ما انكمشت هذه النهضة الفكرية والأدبية الزاهرة، عقب مصرع دول الطوائف، واستيلاء المرابطين على الأندلس في سنة 484هـ/ 1091م، ورغم ذلك فقد سطعت في ظل دولتهم بعض الشخصيات اللاّمعة، مثل: الطبيب والفيلسوف ابن باجة (م: سنة 523هـ/ 1129م)، والفيلسوف السياسي أبو بكر الطرطوشي

---

(1) ابن عذاري: البيان المغرب، 228/2. كذلك المقري: نفح الطيب، 562/1.

(2) توي ابن الأفطس قتيلا بيد المرابطين سنة 487 هـ، وتفي ابن عباد في الأسر بالمغرب سنة 488 هـ، وتوفي المعتصم بن صمادح في سنة 484 هـ.

صاحب كتاب سراج الملوك (م: سنة 520هـ/ 1126م)، والفتح بن خاقان (م: سنة 535هـ/ 1140م)، وابن بسام الشنتريني صاحب كتاب الذخيرة (م: سنة 542هـ/ 1147م)، ولكن ظهور هؤلاء وأمثالهم في هذه الفترة لم يكن إلا أثراً من آثار النهضة الفكرية والأدبية في ظل دول الطوائف [1].

وفي ظل دولة الموحدين، التي خلفت دولة المرابطين في حكم الأندلس، انتعشت الحضارة الأندلسية والتفكير الأندلسي. وقد نشأ الموحدون كالمرابطين في مهاد الخشونة والتقشف، ولكنهم كانوا أوسع أفقاً، وأكثر قبولاً لثمار التمدن، وكان لدولتهم بالأخص صبغة علمية دينية، وقد بلغ التفكير الأندلسي في تلك الفترة ذروة النضج، وتفجرت ينابيع النبوغ، وظهرت طائفة من أعظم أقطاب العلم والأدب، وكان في طليعة هؤلاء ابن البيطار صاحب كتاب الجامع لمقررات الأدوية والأغذية وبنو زهر الأشبيليون، وعميدهم الوزير والطبيب الأشهر أبو العلاء بن زهر، ثم ولده أبو مروان عبد الملك بن محمد بن زهر (م: سنة 564هـ/ 1168م). وهو أعظم طبيب في العصور الوسطى بعد الرازي، كما يعتبر ابن رشد أعظم طبيب بعد جالينوس، وظهر إلى جانب هؤلاء عدد من أقطاب الفلاسفة، مثل: أبي بكر بن الطفيل (م: سنة 581هـ/ 1185م) وهو صاحب رسالة حي بن يقظان الشهيرة [2]، والإمام الفيلسوف أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي (م: سنة 594هـ/ 1198م) والرئيس موسى بن ميمون اليهودي القرطبي (م: سنة 602 هـ/ 1205م) [3].

وفي مجال الأدب والشعر كان أهل الأندلس متضلعين في ذلك، حيث كانوا من اشعر الناس وأرقهم، إذ تأثروا بطبيعة بلادهم: بما فيها من رياض نضرة، وأنهار جارية، وقد أعانهم على ذلك أنسابهم العربية، وهممهم الأبية. وكان القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي هو العصر الذهبي للشعر، إذ برز

(1) عنان: المصدر السابق، ص 418 - 419.
(2) أحمد أمين: ظهر الإسلام، 243/3.
(3) السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام، ص 285.

كثير من الشعراء، منهم: أحمد بن محمد بن دراج القسطلي، الذي يقارن ببشار بن برد والمتنبي، وجعفر بن عثمان الحاجب، وأحمد بن عبد الملك بن مروان، وأغلب بن شعيب، وأحمد بن فرج، وابن عبد ربه ــ صاحب كتاب العقد الفريد ــ وأبو إسحاق الألبيري، وأبو عبد الله محمد بن شخيص. واشتهر منهم أيضاً أبو عمر يوسف بن هارون الكندي، المعروف بالرمادي القرطبي، المتوفى عام 403هـ/ 1012م [(1)].

ولما سقطت الخلافة الأموية (سنة 422هـ/ 1030م) وقامت دول الطوائف، تنافس الملوك في اجتذاب الشعراء إليهم، فتألق فن الشعر، وتبارى الشعراء في نظم القصائد. وكان لكل ملك من ملوك الطوائف شعراؤه، فمن شعراء المعتمد بن عابد ملك إشبيلية: ابن عمار، وابن اللبانة، وابن زيدون. ومن شعراء المعتصم بن صمادح: ابن الحداد وأبو الوليد النحلي، وأبو الفضل بن شرف. وكان بعض ملوك الطوائف ينظم الشعر، أمثال: المعتمد بن عباد، والمعتصم بن صمادح، وأبي مروان عبد الملك ابن رزين، ومحمد بن ظاهر [(2)].

ومن أرق شعراء الطوائف: الشاعر الوزير أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون، الذي سجل باشعاره كثيراً من أحداث حياته: في سراحه واعتقاله، ومقامه وانتقاله. وكان يحب ولادة بنت المستكفي، فأنشد فيها أشعاراً رائعة. منها القصيدة المشهورة التي كتبها إليها، بعد أن يئس من لقائها يستديم عهدها، ويؤكد ودها، ويعتذر من فراقها بالخطب الذي ألم به، ويعلمها أنه ماسلا عنها بخمر، ولاخبا ما بين ضلوعه لها من ملتهب جمر. وتبدأ هذه القصيدة بقوله:

أضحى التنائي بديلاً من تدانينا

ونـاب عـن طيـب لقـيانا تجافيـنا

(1) السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام، ص 293، 294.
(2) المصدر نفسه، ص 295.

بنتم وبنا: فما ابتلت جوانحنا

شوقاً إليكم، ولا جفت مآقينا

واشتهر في عصر المرابطين شعراء الوصف والتشبيهات، أمثال: ابن خفاجة، وابن الزقاق، وابن عائشة. وظهر في عهد الموحدين شعراء عظام أمثال: أبو عبد الله محمد بن غالب الرصافي، وأبو بكر محمد بن أحمد بن الصابوني الأشبيلي [1]. وأبي القاسم خلف بن بشكوال القرطبي (م: سنة 578هـ/ 1183م) وهو مؤلف كتاب الصلة الذي ذيل به على كتاب علماء الأندلس لأبن الفرضي وقد ازدهرت المعاهد العلمية أيام الموحدين بالمغرب والأندلس، وكانت المعاهد الأندلسية في اشبيلية وقرطبة وغرناطة وبلنسية ومرسية، يومئذ مجمع العلوم والمعارف الرفيعة في تلك العصور، وكانت مقصد الطلاب من كل فج، وكانت مزودة بالمكتبات التي تضم أنفس الكتب والمصنفات، في مختلف العلوم والفنون وعني الموحدون أيضاً برعاية الفنون، وأقيمت في عهدهم في معظم قواعد الأندلس كافة من المساجد والصروح العظيمة، التي تمتاز بجمالها الفني [2].

وفي مجال الزراعة فقد ازدهرت في عهد الموحدين ازدهاراً كبيراً، وارتقت أساليبها الفنية، وتنوعت المحاصيل وانتشرت زراعة الفاكهة في احواز بلنسية وإشبيلية، وتقدمت الصناعات الحربية والمدنية، ولا سيما صناعة الأقمشة الممتازة، والصناعات الجلدية، وصناعة الورق وغيرها، وازدهرت التجارة وعم الرخاء. وكانت ثغور الأندلس مثل: بلنسية ودانية وإشبيلية وألمرية ومالقة، من أعظم مراكز التجارة الخارجية في هذا العصر [3].

لقد بلغت غرناطة في إنهاض العلوم والآداب ما بلغته قرطبة، وارتقت بها الفنون ارتقاءً عظيماً، فكان لمهندسيها وبنائيها شهرة ذائعة في أرجاء أوربا، فهم

---

(1) السيد عبد العزيز سالم: المصدر السابق، ص 295 - 297.

(2) عنان: المصدر السابق، ص 420.

(3) المصدر نفسه، ص 421.

الذين بنو الحمراء وموّهوا حيطانها بالزخرف الذهبي البديع، وزينوها بالأشكال المصبوبة ذات الهندسة العربية الفائقة التي لا تزال إلى وقتنا الحاضر محل إعجاب الفنانين في إنحاء العالم. وقد ازدهرت غرناطة في عهد محمد الخامس من بني الأحمر ازدهاراً كبيراً، فكانت الزراعة في نماء، والصناعة في ارتقاء، وكان لأهلها علاقات تجارية جيدة مع إيطاليا وفرنسا ومصر والشام، فراجت تجارها وعظمت عمارتها وانصرف أهلها إلى الآداب والفنون والعلوم [1].

وبالنسبة للفن الإسلامي في الأندلس فقد نشأ في البداية نشأة متواضعة، كالتصوير والنحت والنقش والزخرفة، ثم تقدم تقدماً كبيراً.

وكانت مملكة غرناطة، بالرغم من صغرها وانكماش رقعتها، تضم ثروات عظيمة من الموارد الطبيعية؛ فإلى جانب ودياها الخصبة النضرة التي تغص بالبسائط الخضراء والجنات الفيحاء، والتي تجود بها الحبوب والكروم والزيتون والفواكه وغيرها. توجد الجبال الوعرة تخترقها من كل صوب، وبها الكثير من الثروات المعدنية، ومن بينها الذهب والفضة والرصاص والحديد [2]، وتفيض الأنهار والنهيرات العديدة على بسائطها الماء الغزير. وكانت ثغورها وهي ثغور الأندلس الجنونية، ولا سيما مالقة والمرية، من أغنى الثغور الأسبانية وأزخرها بالحركة التجارية، وكانت ولاية غرناطة وحدها تضم من البلاد والقرى العامرة نيفاً ومائة بلدة وقرية ذكرها لنا ابن الخطيب، وقد دثر الكثير منها اليوم [3]. أما غرناطة عاصمة المملكة، فقد غدت عقب سقوط القواعد الأندلسية الأخرى في يد النصارى أعظم القواعد الأندلسية الباقية، وأغناها وأكثرها ازدحاماً بالسكان وكانت تتمتع بشوارعها الزاخرة، وميادينها الفسيحة، وقصورها البديعة، وحدائقها ومتنزهاتها اليانعة، من أجمل مدن العصور الوسطى [4]. والموسيقى والغناء وغيرها،

(1) عبد الحميد العبادي : المجمل، ص 173 - 174.

(2) انظر ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة (القاهرة، 1956)، 104/1.

(3) المصدر نفسه: ص/133 - 138.

(4) عنان: المصدر السابق، ص 422.

مما ينعت في عصرنا بالفنون الجميلة. وقد برع المسلمون في صنع الزخارف والنقوش والرسوم والصور الدقيقة، وانتهوا في الموسيقى إلى ذروة الافتنان والبراعة، وازدهر الفن الإسلامي في المشرق والمغرب أيما ازدهار، وبلغ الفن الإسلامي في الأندلس أوج ازدهاره في القرن الرابع الهجري. ويجب أن نلاحظ أن مسلمي الأندلس كانوا أسبق الأمم الإسلامية إلى صنع التماثيل والصور، وقد زينوا قصورهم ومعاهدهم منذ القرن الثالث الهجري بالتماثيل والصور والنقوش، التي تمثل الحيوان والنبات والطير. وبلغ الفن الأندلسي في عصر الناصر وابنه الحكم ذروة القوة والبهاء، ومازالت أسبانيا تحتفظ ببعض تحف فنية نادرة من تراث ذلك العصر. كذلك برع الأندلسيون في الصناعات الفنية الدقيقة، مثل صناعة الحلى الفائقة والتحف العاجية والجلدية، ونافسوا فيها صناعة بيزنطية، وتشتهر قرطبة بصناعة الجلود المزخرفة وكانت غرناطة بالأخص تتفوق في صنع الأقمشة الحريرية المذهبة، والبسط الأنيقة، والتحف البرونزية والزجاجية والأسلحة، وكانت أنسجتها المطرزة بالذهب تخلب ألباب الشعوب الأوربية [1].

لقد أثرت الأندلس في أوربا بعلومها وفنونها أكثر مما أثر المشرق الإسلامي، وذلك لقربها من أوربا، ولأنه كان يقصدها كثير من طلاب العلم الأوربيين، فيتثقفون على أيدي العرب، ويتعلمون منهم، ويشاهدون حركاتهم، فيقلدونها في بلادهم. وكان كثير من اليهود يتعلمون العربية والعلوم والآداب وينقلونها إلى أوساط الأوربيين [2]. وعن طريق الأندلس أخذ الأوربيين علومهم، في الطب والطبيعة والكيمياء والرياضيات، وغيرها.

هذا وقد استمرت شهرة قرطبة ومكتبة قصرها الملكي في نشر العلم والحضارة الإسلامية، حتى بعد سقوط الخلافة، وخاصة في عهد المرابطين، وهذا مما دفع ابن رشد إلى القول: (إذا مات عالم باشبيلية وأريد بيع كتبه حملت إلى

(1) عنان: المصدر السابق، ص 484 - 487.

(2) أحمد أمين: ظهر الإسلام، 34/3.

قرطبة، حتى تباع فيها، وإن مات مطرب بقرطبة وأريد بيع آلاته حملت إلى اشبيلية)[1].

ويبدو أن هذه المكتبة لم تستطع الصمود كثيراً أمام أحداث ذلك العصر السياسية، حيث ما أن سيطر الحاجب المنصور بن أبي عامر (366 - 393هـ/ 976 - 1002م) على مقاليد الدولة، حتى أمر بحرق أو تلف الكتب القديمة، أو إلقائها في آبار القصر، وفي باطن الأرض؛ وذلك إرضاءً لبعض الشيوخ، الذين كانوا يرون أن كل من يقرأ هذه الكتب متهماً في نظرهم بالهرطقة أو الزندقة [2].

(1) ليفى بروفنسال: حضارة العرب، ص 70.
(2) المصدر نفسه، ص 71.

خاتمـــة

خلال فترة الحكم العربي للأندلس امتزجت الأمة الأسبانية وتأثرت إلى حدّ كبير بثقافة وحضارة وعادات وتقاليد الفاتحين العرب، التي تركت طابعها العميق في الشخصية الأسبانية، التي تنعكس فيها سائر هذه المؤثرات. وبفضل هذا التفاعل غدت أسبانيا الإسلامية مجالاً خصباً للإبداع الحضاري، بعد أن توفرت لها عوامل الطبيعة الساحرة، وعوامل الدولة القوية الناهضة بعد أن حمل إليها العرب النازحون من المشرق الإسلامي دينهم الحنيف، ومدينتهم المزدهرة، وطموحهم الكبير؛ فتمازجت هذه المعطيات مع خصائص الأسبان، ولا سيما تلك الخصائص المتعلقة بالمزاج والجانب الفكري، فنتج عن كل ذلك حضارة مزدهرة عظيمة فاقت كل تصور وخيال، وأصبحت المنبع الذي استقت منه أوربا حضارتها فيما بعد

عند تأليفنا لهذا الكتاب، راعينا فيه كتاباً منهجياً لطلبة قسم التاريخ، لهذا توخينا فيه الاختصار والسهولة والتركيز على تتبع الأحداث السياسية خلال الفترة التاريخية المستهدفة من هذا البحث.

تناولنا في هذا الكتاب سبعة دول من دول الطوائف، التي بلغ عددها في بعض الأحيان عشرون دولة أو إمارة، وخلال ذلك ذكرنا الصراع المرير الذي دار بين هذه الدول، وكيفية محاولة أولئك الحكام بسط نفوذهم وسلطانهم على الأراضي والمدن المجاورة لهم، ولو اضطروا إلى الاستعانة بأعدائهم النصارى الأسبان.

ثم انتقلنا إلى الحديث عن تاريخ مملكة غرناطة تحت حكم بني الأحمر، فذكرنا الأسباب التي جعلت منها قلعة صامدة في وجه النصارى الأسبان أكثر من قرنين ونصف من الزمان وبيّنا أنه حكمها خلال تلك الفترة حوالي عشرين حاكماً تمتع الكثير منهم بصفات ممتازة. ثم أوضحنا الأسباب التي عجلت بسقوط هذه المملكة العظيمة.

وإتماماً للفائدة رأينا من الواجب التحدّث عن أسباب انهيار الوجود العربي في الأندلس، فذكرنا ثمانية أسباب؛ تتلخص في انعدام الوحدة في النضال العربي، والثورات الداخلية، وتدخل المولدين والبربر والصقالبة في شؤون الدولة، والتدخل النسوي والاغتيالات السياسية والخيانة، وإهمال فلول الشمال وعدم استئصال شأفتهم، والتدخل الكنيسي، والاستنجاد بالمغاربة، وأخيراً انعدام الروح الإسلامية في علاقات العرب بالأسبان.

وأخيراً عرجنا إلى الحديث عن محنة المسلمين بعد سقوط غرناطة، وما صاحب ذلك من محاكم التفتيش، وملاحقة المسلمين والقضاء عليهم بحيث محيت آثارهم البشرية حتى لم يبق في الأندلس كلها ولا مسلم واحد.

ثم تتبعنا مسيرة الحياة الفكرية في الأندلس، وأوضحنا كيفية عناية بعض الحكام المسلمين بالناحية الفكرية والأدبية والعمرانية، حيث وصَلت الحضارة الإسلامية إلى ذروتها من القوة والبهاء، خاصة في عهد عبد الرحمن الناصر وولده الحكم المستنصر بالله.

وأخيراً أملي أن أكون قد وُفقّت في تأليف هذا الكتاب، ولست أدعي فيه الكمال، وإنما هو أداء لبعض الواجب نحو بلدي ليبيا ووطني العربي وأمتي العربية والإسلامية، فإن كنت مصيباً ـــ وهو الذي نأمله ـــ فلله الفضل والحمد، وإن كانت الأخرى، فمني، فإن الكمال لله وحده ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ سورة يوسف من الآية 76.

مصادر ومراجع البحث

أولاً : المصادر

- ابـــــن الأبــــــار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله القضاعي
  - أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق وتعليق ليفي بروفنسان (بيروت، 1956).
  - التكملة لكتاب الصلة، نشر عزت العطار الحسيني (القاهرة، 1956)
  - الحلة السيراء في أشعار الأمراء، نشر حسين مؤنس (القاهرة، 1963)
- ابن أبي زرع، أبو الحسن علي بن عبد الله
  الأنيس المطرب بروض القرطاس، (فاس، 1975)
- ابـــــن الأثيـــر، عز الدين أبي الحسن علي بن أبي الكرم
  الكامل في التاريخ، تصحيح عبد الوهاب النجار (القاهرة، 1348 هـ)
- ابـــــن بسام الشنتريني، أبو الحسن علي
  الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر (القاهرة، 1939)
- ابن حزم ، أبو محمد علي بن أحمد
  جمهرة أنساب العرب، حققه ليفي بروفنسال ونشره في مجموعة ذخائر العرب سنة 1948 (القاهرة ، 1948)
- ابـــــن حيان، أبو مروان بن خلف حسين
  المقتبس ، تحقيق محمود مكي (بيروت ، 1973)
- ابـــــن خاقان، أبو نصر الفتح بن محمد بن عبد الله القيسي الإشبيلي
  قلائد العقيان، تقديم محمد العناني (تونس، 1966).
- ابن الخطيب، لسان الدين بن الخطيب محمد بن عبد الله.
  - الإحاطة في أخبار غرناطة - تحقيق عبد الله عنان (القاهرة ، 1955)
  - أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق وتعليق ليفي بروفنسال، دار المكشوف (لبنان، 1956).
  - اللمحة البدرية في تاريخ الدولة النصرية (القاهرة ، 1347 هـ)
  - كناسة الدكان بعد انتقال السكان (القاهرة، بدون تاريخ).

- ابـــــن خلدون ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد
كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر (بولاق ، 1284 هـ).
- ابـــــن عبد البر،
الاستيعاب (بدون مكان، بدون تاريخ)
- ابـــــن عذاري المراكشي، أبو العباس أحمد بن محمد
- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق بروفنسال، دار الثقافة (بيروت، بدون تاريخ)
- ابـــــن عبد الملك المراكشي، أبو عبد الله محمد
الذيل والتكملة، السفر الخامس قسم 1، 2 تحقيق إحسان عباس (بيروت، 1965)
- ابـــــن سعيد المغربي، أبو الحسن علي بن موسى بن محمد
المُغرب في حُلَى المَغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف (القاهرة، 1964)
- ابـــــن القوطية، أبو بكر محمد بن عامر
تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطبَّاع، مؤسسة المصارف للطباعة والنشر (بيروت، 1994).
- البكري ، عبد الله بن عبد العزيز
المُغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب، نشر دي سلان (الجزائر،1911).
- الحميري ، أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم السبتي
الروض المعطار في أخبار الأقطار (صفة جزيرة الأندلس) نشر وترجمة ليفى بروفنسال (القاهرة، 1937)
- السلاوي الناصري، أبو العباس أحمد بن خالد
الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى (الدار البيضاء، 1956)
- الشقندي، إسماعيل بن محمد
رسالة في فضل الأندلس "وردت ضمن كتاب فضائل الأندلس وأهلها لابن حزم وابن سعيد والشقندي" نشرها وقدم لها صلاح الدين المنجد (دار الكتاب الجديد، 1968)

- المراكشي، عبد الواحد بن علي (م: سنة ....

- المعجب في تلخيص أخبار المغرب - ضبطه وصححه وعلق على حواشيه وأنشأ مقدمته محمد سعيد العريان ومحمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة (القاهرة، 1949)

- المقري، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد

- ازهار الرياض في أخبار عياض (القاهرة، 1942)

- مؤلف مجهول

أخبار مجموعة في ذكر الأندلس وأمرائها والحروب الواقعة بها بينهم، نشره وعلق عليه لافويتني والكنترا (مدريد، 1867)

- مؤلف مجهول

الحلل الموشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة (الدار البيضاء،1978)

- مؤلف مجهول

ذكر بعض مشاهير أعيان فاس في القديم، نشر بعنوان بيوتات فاس الكبرى (الرباط، 1972)

ثانياً : المراجع

أ- المراجع العربية:

- أرسلان، الأمير شكيب

خلاصة تاريخ الأندلس، دار مكتبة الحياة (بيروت ، 1983)

- أشبـــاخ، يوسف

تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة عبد الله عنان (القاهرة، 1940)

- أميـــن، أحمـــد

ظهر الإسلام، مكتبة النهضة المصرية (القاهرة ، 1999)

- بروفنســـال، ليفـــي

حضارة العرب في الأندلس، ترجمة ذوقان قرقوط، منشورات دار مكتبة الحياة (بيروت، بدون تاريخ)

- بيضـــون، إبراهيـــم

الدولة العربية في أسبانيا من الفتح حتى سقوط الخلافة، دار النهضة العربية (بيروت، 1986)

- التواتـــي، عبد الكريم

مأساة انهيار الوجود العربي بالأندلس، نشر وتوزيع مكتبة الرشاد (الدار البيضاء، 1967)

- حبيبـــة، علـــي

مع المسلمين في الأندلس (بدون مكان، بدون تاريخ)

- حتاملة، محمد عبده

محنة مسلمي الأندلس عشية سقوط غرناطة وبعدها، مطابع دار الشعب (عمان، 1977)

- الحجي، عبد الرحمن علي

التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دار العلم (بيروت، 1976)

- الخطابي، محمد العربي

الطب والأطباء في الأندلس الإسلامية، دراسة وتراجم ونصوص، دار المغرب الإسلامي (بيروت، 1988)

- دندش، عصمت عبد اللطيف

الأندلس في نهاية المرابطين ومُستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني، دار المغرب الإسلامي (بيروت، 1988)

- سالم، السيد عبد العزيز

- تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس (الإسكندرية، 1961)

- في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر والتوزيع (الإسكندرية، 1985)

- قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، (دراسة تاريخية، عمرانية اثرية في العصر الإسلامي) دار النهضة العربية (بيروت، 1971)

- الشطشاط، علي حسين

تاريخ الجراحة في الطب العربي (من القرن 3-7هـ/ 9-13م) منشروات جامعة قاريونس (بيروت، 1999)

- عاشور، سعيد عبد الفتاح

أوربا العضور الوسطى (بدون تاريخ، 1964)

- العبادي، أحمد مختار

الصقالبة في أسبانيا - لمحة عن أصلهم ونشأتهم وعلاقتهم بحركة الشعوبية (مدريد، 1953)

- العبادي، عبد الحميد

المجمل في تاريخ الأندلس، دار القلم (القاهرة، 1964)

- مؤنس، حسين

- رحلة الأندلس (القاهرة، 1963)

- فجر الأندلس، دار المعارف (القاهرة، 1959)

ب- المراجع الأجنبية:

- Dozy. R, Histoire des Musulmans d'Espagne jus qn'a la conque'te des Almoravides Leiden, 1932.

- Encyclopaedia Britannica, Chicago, Lonon, Taronto, Copright, 1969.

- Isidro de les Cagicas, Los Mudijares, Madrid, 1948.

- Le'vi - proven al, Histoire de L'Espagne Muśulmane, paris, 1970.

- Ostrogarsky. G, Hostpry of the Byzantin State, OX ford, 1968.

- Runciman. S, A History of the cruades, kingdom of Acre, Cambridge, 1955.

- Sidney panter, Ahistory of the Middle ages, ...

صدر للمؤلف

1- كتاب الطبيب والمترجم والناقل ثابت بن قرة الحراني منشورات جامعة قاريونس 1990 ف.

2- كتاب تاريخ الجراحة في الطب العربي من القرن الثالث إلى القرن السابع الهجري منشورات جامعة قار يونس، 1999 ف.

3- دراسات في تاريخ الحضارة الإسلامية، دار قباء (القاهرة، 2001 ف).

4- تاريخ الإسلام في الأندلس من الفتح العربي حتى سقوط الخلافة، دار قباء، القاهرة، 2001 ف).

فهرس

الفصل الثالث